إملي نصرالله

شجرة الدفلى

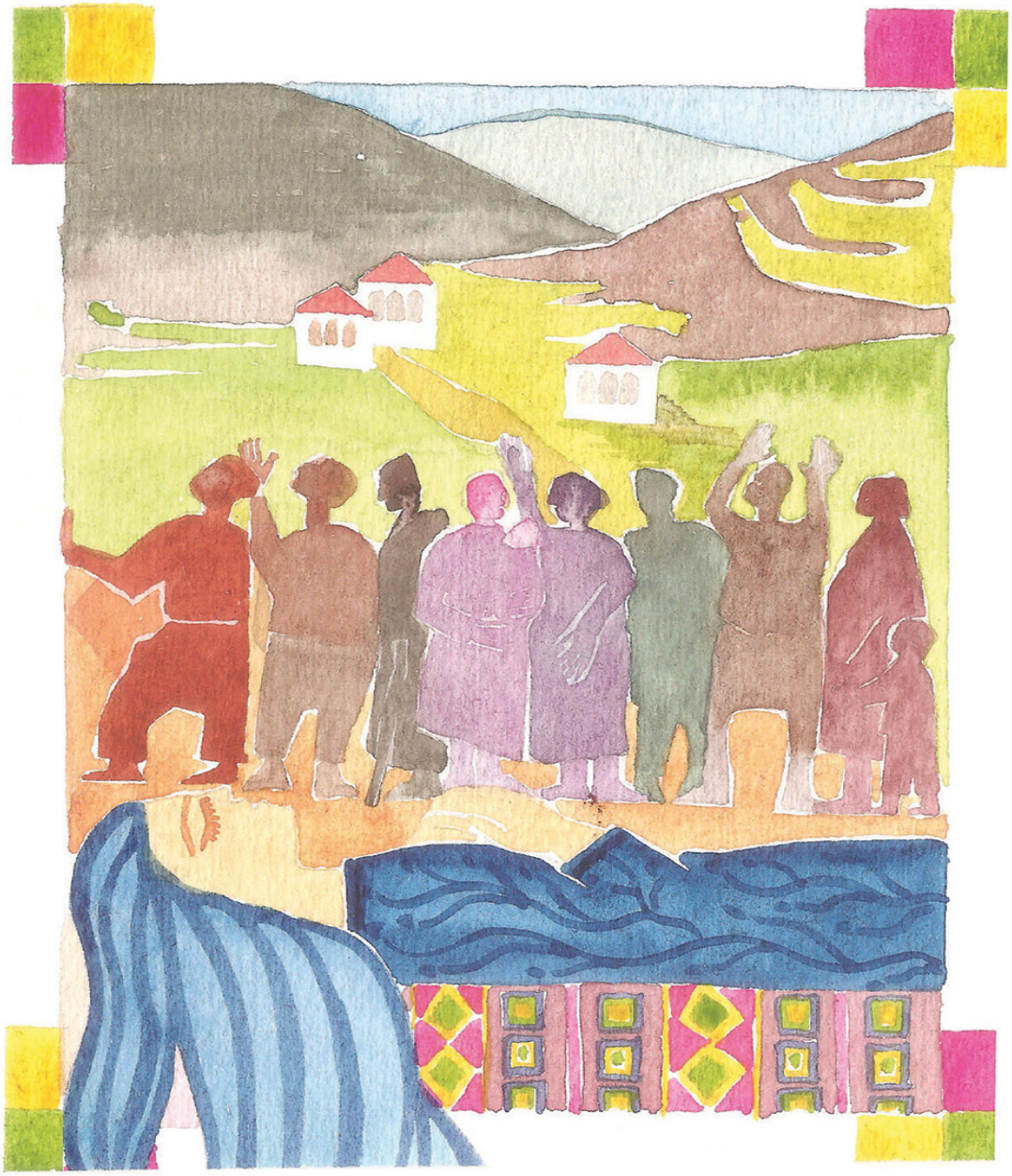

نوفل

إميلي نصرالله

شَجَرَةُ الدُّفْلى

رواية

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

الطبعة التاسعة، 2017
صدرت عام 2017 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2017
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com facebook.com/HachetteAntoine instagram.com/HachetteAntoine twitter.com/NaufalBooks
لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **مها نصرالله**
خطّ الغلاف: **سمير الحداد**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-855-6
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-856-3

إلى أ. أ. نصر
مَن سألَني ذات يوم:
«لمَن ستُهدين كتابك؟»
ثمّ رحل قبل أن يلقى الجواب.

تصفِّق الأيدي.

أيدٍ كبيرة، معروقة، مكسوّة ببقع الدم الميّت.

أيدٍ غليظة، مشقّقة، خشنة. أيدٍ طفلة ساذجة.

أيدٍ لطيفة تعرف كيف تداعب، وتحنو، وتطرّز الحرير.

تتشابك الأيدي، وتتلاحم، ثمّ تتلاقى في تصفيق موقَّع عنيف.

تتحرّك الأيدي لتردّ الستائر القاتمة، تسدلها فوق الوجوه، تُخبِّئ الحزن وأيّام الضيق.

قارع الطبلة وحده، وسط الحلبة، مرتاح؛ مركز الثقل في قاعة الفرح، يتربّع فوق كرسيّ ثابت كسلطان تركيّ، وأنامله تنتفض، تنقر الطبلة، تحرّك عواطف الجماعة.

تفرقع الضحكات بلا اتّزان، وتطفو فوق الصخب فقاقيع صيحات أنثويّة «يختنق» بها الجوّ، فيزداد عبوقه، ويتكاثف الغبار.

«زقفة يا شباب...»

ويتلكّأ الشباب... الفتور يُهَيمن على الجوّ، والعروس تتثاءب، والعريس يكاد يغفو على كتفها.

وتزعق إحداهنّ بزغردة مثل شحطة مسمار صدئ على سطح نحاسيّ، وتُسيطر على الشباب موجة ضجر.

الوقت لا يزال باكرًا، الطيور لم تلجأ بعد إلى أعشاشها، وسهرة العرس تطول حتّى مطلع الفجر، وعرس فريد بك، بصورة خاصّة. بك وابن بك، أبوه منصور السمعاني، الأُسرة العريقة، صاحبة دار القرميد الوحيدة في «جورة السنديان».

يذكر بو دعّاس عرسًا أقيم في هذه الدار منذ ربع قرن، ويومها كان لوجوه القرية قدر واحترام.

كانت القرية ملتحمة، متراصّة البنيان، راسخة الجذور كأشجار السنديان العتيقة، كالقلعة الحصينة...

ورياح هذه الأيّام عنيفة، تجتاح الحصون، تنفذ من شقوق الأسوار، تخلخل أُسسها. وتلك الأيّام... (سقى اللّه تلك الأيّام!) كان الشبّان يفتّتون الحصى تحت أقدامهم، والصبايا يغنجن بالفساتين الفضفاضة المطرّزة. وجيل اليوم مجموعة مظاهر شاذّة؛ قطيع من الحيوانات الغريبة أفلت بين المساكن الغبراء. شباب اليوم! يا للمزحة الكبرى!

وفي ذلك العرس، كانت الدار ترقص بمَن فيها، تشعّ بلا أنوار. واليوم تعجز مصابيح الكهرباء عن بثّ النور في أرجائها، وتبقى الظلمة تُلفلف الأجواء وتتغلغل في الزوايا، لتصل إلى القلوب.

وليلة العرس تلك، ظلّ جرس الكنيسة يقرع طوال الليل، فتُردّد أصداءه الأودية القريبة والبعيدة، وتنتشر الفرحة في القرى المجاورة، المتقابلة فوق شرفات الرُبى. واليوم، مَن يتطاول ليربِّع الجرس؟... مَن؟... هؤلاء الشباب؟...

فارت حماسة بو دعّاس وهو يجترّ هذه الذكريات في إحدى زوايا القاعة، فانتصب صارخًا:

«وين الشباب؟... وسّعوا من الدرب، اليوم عرس فريد بك».

وأمسك بمنديله ونزل إلى الحلبة وظلّ الشباب يتفرّجون.

مشتلهم جورة السنديان، واليوم يتوزّعون في كلّ تربة.

التقوا هنا يومًا، وما كاد يطلع الفجر، وتشرق شموسهم، حتّى تجنّحوا وطاروا.

اقتلعوا جذورهم، هربوا وهدموا خلفهم الجسور.

ولن يستطيعوا أن ينسوا، فهم يعودون، مرّة في السنة، للزيارة.

سرّ غامض يشدّهم إلى العودة، ليتحسّسوا بأصابعهم الثغرة الفارغة.

وقف بو دعّاس يمسح العرق عن جبينه وشاربَيه، وسهام الخيبة تخترق صدره. وهو يكابر ويأبى أن يعترف بربع قرن يقف فاصلًا بين ذكرى يوم مضى ولحظات يسجّلها الزمن الحاضر.

وحدها ريّا كانت تعي ما يجري تحت الغشاوة المبرقعة بالتصفيق والرقص.

وحدها كانت تستطيع أن ترقص؛ أولئك الشباب يُعيدون إليها، كلّ سنة، صورة العالم البعيد الذي تسمع عنه وتتوق إلى الهرب إليه.

هم المجنّحون، وهي مهيضة الجناح. هي نبتة طحلب ظلّت تزحف على وجه التربة الواطئة، وقد بلغَت الليلة فرصتها لتشبّ وتنشر أغصانها في الهواء.

حوَّلت نظراتها عنهم، وقد أحسّت بعاصفة تجتاح صدرها. إنّها تتذكّر عبارة طالما أرَّقَت لياليها، وتهزّها الليلة بلا رحمة وتنهال على رأسها بمطرقة حامية.

سمعتها، مصادفة، من فم أم سليمان حين أقبلَت تزور أُمّها، وتشرب عندها فنجان قهوة.

لم يتسنّ لها إدراك كلّ ما دار بين المرأتين همسًا، ولكنّها أحسّت، بغريزتها، أنّها كانت محور الكلام. ولمّا أبعدَتها أُمّها لتعدّ القهوة، اغتنمَت اللحظة لتسترق السمع. ويا ليتها ما فعلَت! ليتها ظلّت على سذاجتها!

«ياختي، أمّ فريد عم تدبّر عروس لابنها.»

وغاب صوت أمّ سليمان، طوَته رعشات القلب الصغير: تراها تكون الهدف؟

عادَت تُغلغل أُذنها في شقّ الباب، وفهمَت بقيّة الحكاية.

أُمّ سليمان تريد الخير للأرملة وابنتها، وقفز فكرها إلى ناحية فريد بك، العازب السعيد، ومحطّ آمال الصبايا.

لقيته مرّة في الطريق، فاقتربَت منه، تظلّل شفتيها بسمة وديعة. وبعد السلام، قامَت بجسّ نبضه بلباقة لتعلم على «مين حطّ عينه». ولمّا تلكّأ عن الجواب اقترحَت عليه اسم ريّا: «بنت مليحة، أجمل بنات الضيعة. هيدي عندك بتصير ستّ الستّات».

ابتسم البك وهو يصرف الموضوع: «بسلامة معرفتك يا أُمّ سليمان، البنت عال، بس أهلها!».

لم تسمع جواب أمّها؛ كانت ترى صورتها بوضوح، وقد زمَّت شفتَيها، وراحَت تفرك يديها اليابستين.

ليتها اقتنعَت بسذاجتها!

أحسَّت الأرض تميد بها، وانتابها الغثيان، وغلت في صدرها النقمة. رفعَت يديها إلى وجهها، بعفويّة، تحول بينه وبين السحابة السوداء الزاحفة لتغيِّبها، ثمّ

حوَّلت اليدين إلى فوق، تسند بهما سقف البيت وقد أحسّته ينهار على رأسها، يهدمها، يحوّلها إلى حشرة تزحف على الأرض، حشرة صغيرة تافهة، وقدم عملاق تداعبها، ثمّ ترتفع لتسحقها، لتغيِّبها عن الوجود. كان العملاق ينتعل حذاءً لمّاعًا يرسل «زيزقة» متحدّية كلّما وطئ الثرى. ولمّا رفعَت رأسها، أبصرَت وجه فريد بك مطبوعًا على خشب السقف، وجهًا منحوتًا من الحجارة الصلبة.

في تلك اللحظة ودَّت لو تموت، أو تصل إليه لتمزّق وجهه بأظافرها، ولكنّها اكتفَت بعضّ شفتها السفلى، حتّى سال منها الدم، وحملَت القهوة إلى الضيفة.

عادَت كلمات أُمّ سليمان تُحاورها، تصل إليها من التصفيق والزغاريد والغبار؛ وانفتح الجرح الخفيّ في صدرها، فانتفضَت واقفة، ثمّ بقفزة واحدة أصبحَت وسط الحلقة. وهنا، وقفَت صامتة وسيطر الذهول على الجميع؛ خلعَت معطفًا صغيرًا كان يُخفي عُرِي كتفَيها وأعلى صدرها، فانحسر الثوب عن كتفَين رخاميّتين، وصدر ناهد معافى. وبحركة أخرى فكَّت شريطًا يعقص شعرها عند قمّة الرأس، فانسدل متموّجًا بالحياة. وصوَّبت نظرة ساخرة إلى العريس، نظرة لم يفهمها ولم تصله، ثمّ تلفَّتَت إلى مَن حولها ببسمة متحدّية، وأومأَت إلى قارع الطبلة.

ولم تنتظر الإيقاع.

تحوَّلَت بسمتها إلى قهقهة همجيّة فاجرة، تصادَمَت أصداؤها مع نبض القلب، فأخذ وحده يسجّل الإيقاع ويتحكّم بحركة قدميها.

مضَت ترقص على بلاط الغرفة، ثمّ راحَت القدمان تنفصلان تدريجيًّا عن جاذبيّة الأرض، وتزوغان، ترسمان دوائر وهميّة، وتبثّان حولها أشعّة خفّية، لم تلبث أن تحوَّلَت إلى حبال مسحورة، تعلَّقت بها بكلّ قوّتها...

من زمان وهي تحلم بحبل واحد، ذهبيّ اللون، تتزحلق عليه لتبعد عن حدود القرية. وهذه الليلة فرصتها لترحل بعيدًا إلى حيث يستطيع أن يحملها التحدّي والعنفوان.

رفعَت ساعدَيها بضراعة، ونفضَت شعرها فانهمر شلّالًا ليليًّا يُعانق الكتفَين. وبدأ الحذاء يثقل قدميها، فخلعَته، وتابعَت الرقص حافية.

عرس الليلة يُقام في الداخل، طيّ جدران الصدر، تشترك في إحيائه الجنّيّات، ساكنات القناطر المهجورة والغابات المظلمة.

تسمَّرت العيون على جسمها، وانهالَت الأسئلة الصامتة: «متى تعلّمت مثل هذا الرقص؟... الفاجرة!».

«إلى متى تستطيع الصمود؟»

«كيف تجرؤ؟ كيف؟»

وقبلها، كان الرقص حركات تقليديّة تؤدّيها رفيقاتها ببلادة.

الجسد الفوّار يتمايل كغصون الكينا أمام عاصفة هوجاء، تحوَّلَت أعضاؤها إلى ورقات خضراء ناحلة، ليّنة، تعبر حولها الرياح، تدغدغها، تُميلها في كلّ اتجاه، وهي خاضعة مستسلمة بلذّة.

ترقص!

إنّها تنتفض انتفاضات موقّعة، ولم يعد الطبل والتصفيق مصدرَي الإيقاع.

انفصل كيانها وسمعها عن الجماعة؛ انتقلَت الطبول إلى رأسها، وفرَّت العينان من نافذة مفتوحة، وازداد انفراج الشفتين. تحوَّلَت أنفاسها إلى صفير رياح مجنونة، تنقر نياط القلب، فيتسلّم قيادة الأوتار الموسيقيّة.

دارَت حول نفسها عشرات المرّات، ولم تتوجّه بلفتة إلى الجمهور أو العروسين. عزلتها الأنغام الداخليّة، وصخب أصوات الذاكرة.

تسربَل جسمها بقطرات العرق تنضح من كلّ مغرز إبرة، وتدفّق من عينيها لهبٌ زاد اندلاع النار في عروقها.

قطرات دمها تنبض، تضجُّ، تطرق جدران العروق لتتدفّق إلى الخارج. ولم يَبقَ هناك ما يصلها بمَن حولها سوى عبارة أُمّ سليمان، «وزيزقة» حذاء فريد بك...

ضربَت الأرض بقدميها من جديد، وأفلتَت، كالدرويش، تلفّ وتدور، وتسمع أصداء الصيحات كأنّها تنطلق من عالم آخر: «كفاكِ، أعطي دورًا لغيرك... تعبتِ... استريحي».

«يا بنتي بيكفي... استرينا.»

هذا صوت أُمّها؛ لا تزال هنا، وبو دعّاس، والجميع... «كرمى لعينيك بو دعّاس، وعيني فريد بك، أرقص الليلة... كرمى لعيونكم جميعًا».

تابعَت دورانها، رافعة وجهها، حتّى بدا كأنّه مشدود إلى سقف الغرفة بخيط خفيّ يتصل بأنفها، ولا تملك إلّا أن تدور حول ذلك الخيط، بين كفّين قويّتين،

تغزلانها وتخلقان لها مدارًا محدّدًا لا تستطيع الإفلات منه.

ازدادَت الضجّة من حولها، وتكاثف ضغط الاحتجاج؛ ارتفعَت الأصوات تطلب منها التوقّف، والخروج من الحلبة... وهي لا تملك القدرة على تنفيذ مشيئتهم.

إرادة أقوى منها تسيطر عليها، وتُسربل وجودها بدوائر وهميّة تعجز عن اختراقها:

«أنا مغزل، وحقّكم على الغازل، أوقفوه هو، ألا ترونه؟ إنّه قدري. افعلوا به ما شئتم، فأنا كذلك أودّ الانعتاق. ها هو يشدّني من أنفي، يربطني بطرف خيط نحاسيّ أعجز عن قطعه. مدّوا سواعدكم القويّة وأنقذوني... يكاد يقتلعني من جذوري، يُحرّرني من جاذبيّة الأرض ويحملني نسمة خفيفة تهبّ في كلّ صوب، وأنا لا قدرة لي على الاعتراض... ولم يكن لي الأمر لأعترض على ولادتي، على انسداد الآفاق في عينيّ... أنا نسمة هواء؟... لا... قطرة ماء حاولت معاكسة المجرى...».

«طفح الكيل!»

أعلن ذلك بو دعّاس وهو يقفز إلى الحلبة... ثمّ أومأ إلى الجمهور ليكفّ عن التصفيق؛ وماتَت أنامل الطبّال.

وصلت ريّا إلى غيبوبة كاملة، وخار الجسم أمام عنفوان الروح الثائرة، فانهار كالجدار المتداعي.

ولم تستطع الغيبوبة أن تُجرّدها من تحدّيها؛ ودَّت أن تضع خاتمة مثيرة لرقصتها المحمومة اليائسة، ولم تجد هدفًا أصلح من مخّول... فارتمَت في حضنه.

«جنَّت الفتاة...»

لم يجد مخّول تفسيرًا آخر، وسرَت همسات مكبوتة بين الحضور. حاول الشابّ أن يتخلّص من الجسم الرازح فوقه، حاول أن يرفع يدًا واحدة فخانَته قدرته، وبقِيَ ظلّ دهشة بلهاء مرتسمًا في عينيه وفوق تهدّل شفتَيه.

«نادوا أمّها تحملها عالبيت، جنّت البنت... جنّت.»

وتحمّس بو دعّاس؛ اقترب من مخّول يزيح العبء الثقيل عن حضنه، وبقبضة حديديّة أمسك بيدها ودفعها إلى الباب.

لم تُقاوم الفتاة؛ سرَت رعشة اليقظة في عروقها، وتلاها إحساس بالشلل التامّ. تمنَّت لو ترتمي على الأرض، وتموت في تلك اللحظة. ولم تشعر بعضّة ندامة، كأنّ تصرّفها انفصل عن اللحظات التالية وأصبح ملكًا للجمهور، وكلّ ما تبقّى لها شعور خدر سرى في أوصالها، فأغمضت عينَيها وتراخَت على ساعد الكهل.

بحَثَ بو دعّاس عن كلمة، وهو يجد لكلّ مناسبة ما يُقال، فعجز؛ أُصيبَت قريحته بالعقم، بالشلل.

الشعور الذي سرى في عروق ريّا انتقل إلى لسانه، فلم يتفوّه بحرف. وأنقذه من حيرته وصول الأرملة؛ أقبلَت ألماس تُوَلول وتلطم خدّيها: «يا مصيبتنا شو هالفضيحة، ولك شو عملتِ يا بنت الـ... يا جرصتنا بين الناس».

وكان الوقت قد فات؛ ريّا أصبحَت في دنيا أُخرى، ولم يعُد يؤذيها الكلام. انهالَت عليها الأرملة بالضرب والرفس، فلم يرفّ للفتاة جفن. ومرّة أخرى تدخّل بو دعّاس، يردّ الأُمّ الهائجة، ويسوقها مع ابنتها في اتجاه كوخهما العتيق.

ارتمَت ريّا على فراشها، فاقدة الوعي والحركة. وظلّ بو دعّاس يسكّن من هياج الأُمّ، ويُحاول أن يجد تعليلًا لما حدث، والأرملة تقرع صدرها وتمسح دموعها: «وين عينك يا بو سعد؟ ارجع شوف شو خلَّفت وراك!».

واتَّجهت بعينيها إلى أثمن قطعة أثاث في الكوخ؛ صورة بو سعد في إطارها المذهّب.

أحسّت، للحظة، أنّه يستجيب لندائها، فيتحرّك شارباه الكثيفان ويرفّ جفناه. وكأنّها سمعَته يتنحنح ويزعق بصوته المدوّي، فتملّكها الخوف لحظات، ثمّ عادَت إلى الواقع، تُبصره خلف سنوات عشر فصلَته عنها.

لا، لم تكن له هذه النظرة ولا ذاك الصوت. والشاربان؟ وحدها تعرف القصّة.

حملَت صورة شمسيّة، هي كلّ ما بقِي من ذكراه، وقصدَت المصوّر الأرمنيّ في القرية المجاورة، وطلبَت إليه أن يُكبّر صورة حلوة للمرحوم. وهزّ المصوّر رأسه، وهو يتمتم كلمات لم تفهمها، ولمّا أكمل الصورة لم يكن هناك أقلّ شبه بينها وبين الأصل. غير أنّها أعجبت الأرملة... فغمرَتها بذراعيها، وغسَلت زجاجها بدموع حارّة، ثمّ نقدَته أجره من دون أن تُساوم، وحملَت الصورة إلى صدر البيت.

«في الصدر مركزك يا بو سعد!» ومن يومها، تبدَّلَت أحوالها، ودبَّت في عروقها حيويّة جديدة لم تكن لها حتّى في أيّام المرحوم.

كان بو سعد، رحمه اللّه، رجلًا طيّبًا، مغلوبًا على أمره، مقهورًا في دنياه. كان غريبًا في جورة السنديان، قصدها ليتعيّش، ولم يعد يفارقها حتّى فارقته الحياة. لم يكن يطمح إلى أكثر من اللقمة، وهذه استطاع أن يحصّلها من جمع الحطب. وأحبّ فيه الناس مسكنته وصدقه، ودأبه على العمل الذي أودى بحياته باكرًا.

أمّا سعد...

الغصّة تكاد تخنق الأرملة، حتّى الساعة يسيطر عليها الشعور بالعجز؛ لقد فشلَت في منحه صبيًّا يُتمّم اللقب. وكان، رحمه اللّه، يتفاءل باللقب، ويطرب حين يسمع الناس يُنادونه: «بو سعد»، ولكنّ اللّه لم يرزقه (بلا اعتراض على حكمتك يا ربّ)! وبدل سعد رزقه هذه الفضيحة:

«وين عيونك يا بو سعد.»

ترك بو دعّاس الأرملة، بعدما اطمأنّ إلى هدوئها، وكانت قد استنفدَت الدموع. تركها أمام الصورة، عيناها مسمّرتان بعيني المرحوم، والقنديل الشاحب يحترق في الزاوية، والصمت يجثم ثقيلًا بينها وبين الجسم الممدّد على الفراش، ولم يكن لها بدّ من الاستسلام للنوم... لنوم يائس مقهور.

لم تتحرّك ريّا لتستقبل الفجر، ظلَّت ممدّدة في فراشها كتلة إرهاق غاف.

نهضَت الأرملة وغادرَت الكوخ لتفتح خمّ الدجاج، وتملأ الجرّة من العين.

تشاغلَت بأعمال الصباح لتفكّر كيف تواجه نهارها... كيف تقابل الفتاة.

ليس لها غير بو دعّاس تستنير برأيه. منذ وفاة المرحوم والرجل يُقيم نفسه وصيًّا على البيت؛ تعيش مع ابنتها تحت جناحَيه، ولا تُخفي عنه سرًّا.

وتمنَّت لو تسجن ريّا، تُقفل عليها الباب، وتتركها في الغرفة المظلمة تُقاسي عذاب الوحدة والجوع.

وقفزَت إلى ذهنها صورة القطّة السوداء...

كانت تلك القطّة مثالًا في المسلك الطيّب، إلى أن جاء يوم تحوّلت فيه عن سبيلها فتوقّفَت عن صيد الفئران والحشرات، وباتَت تقضي وقتها أمام النافذة، تموء مواءً غريبًا، حتّى إذا عضّها الجوع انسلَّت إلى «النمليّة» والتهمَت ما تصل إليه من طعام. وكان الحلّ الوحيد أن تزربها في «مدّ» الحطب؛ وهذا ما فعلته، ثمّ غابَت عنها يومين بعدما سدَّت عليها كلّ منفَذ.

ولن تنسى ما حدث حين فتحَت الباب؛ قفزَت اللعينة في وجهها، وأنشبَت مخالبها وأنيابها في يديها بشراسة وحشيّة، ثمّ انطلقَت كالسهم في اتجاه البساتين، ولم تعُد تُبصر لها أثرًا.

وظلَّت ذكرى الحادثة عالقة ببال الأرملة، وآثار المخالب باقية على الجدار.

وريّا، ابنتها، أملها الوحيد في الدنيا (ماذا عملتُ يا ربّي...).

مشَت على رؤوس أصابعها إلى جانب الفراش؛ الفتاة لا تزال نائمة، صدرها يرتفع ويهبط بزخم الأنفاس، وعلى الوجه مسحة براءة ذكَّرَتها بأيّام طفولتها؛ كانت تنهض في الليل، وتقترب من فراش الطفلة، وعلى ضوء المصباح،

تتملّى من حلاوة الوجه وبراءته، وتحلم: ستكون لي بنت حلوة، ألبسها كالأُسوار الثمين، أُفاخر بها نساء القرية: «مال الدنيا يعجز عن شراء هذا الكنز، أليس كذلك يا بو سعد؟».

كم كرَّرت السؤال على مسمعه! وكان، رحمه اللّه، يهزّ رأسه موافقًا: «نشكر اللّه على هالنعمة يا مرا».

ودرجَت ريّا نحو الطفولة، فكانت زينة بنات الحيّ... وعجزَت ألماس عن ردّ تساؤل يستيقظ في عيون الجيران، كلّما أبصروها برفقة الطفلة؛ تساؤل يقول: «كيف ينبُت الورد على أكتاف العلّيق؟».

سمَّرت قدميها قرب الوردة، واستغرقَت في التأمّل واجترار أفكارها، وسمحَت لنفسها بأن تخوض في بحيرة لم تحرّك مياهها من قبل: الجسم المشلوح فوق «الطرّاحة» كلّ ذرّة فيه تتحدّى، تفور بالحياة.

تنقَّلَت عيناها من الخصر الضامر إلى الصدر المتمرّد، وبحركة لا شعوريّة مسحَت صدرها بباطن كفّها؛ رقعة ملساء قاحلة، الصدر الذي أرضعها الحليب بات خرقة بالية: «حتّى في عزّ صباي لم يكن لي مثل هذا الكنز!».

وكأنّها تُبصر صباها أوّل مرّة؛ تراه يتفتّح هناك، فوق الفراش، يصلّي بصمت، يتنفّس براحة... جمدَت عيناها فوق الوجه (من وراء ظهري تُخطّط حاجبَيها وتحمّر الشفتين، مَن علّمها هذا؟ مَن؟).

وارتفعَت يدها تلقائيًّا، تتلمّس أخاديد الوجه الشاحب؛ خطوط الهمّ والكدح، تعلوها فروة من شعر حائل اللون، يعجز عن ستر الجلد. وهي، شعرها غابة أبنوس، يُكمل اللوحة، ويُرسل رعشات باردة في أصابع الأرملة، رعشات مبعثها العجز، والخوف من العجز، ومن شيء آخر، لم تستطع أن تُسمّيه، دفعها إلى الهياج من جديد، فانكبَّت فوق ريّا تشدّها من شعرها وتزأَر في وجهها: «قومي اللّه يلعنك، الدنيا ظهر، قومي شوفي شغلة تنفعك».

فتحَت ريّا جفنين مثقلين ثمّ أطبقَتهما، محاولة العودة إلى النوم؛ فمنعَتها يد الأرملة وارتدَّت إليها بالضرب واللكم، وظلَّت الضربات تسقط على جدار صلد، ويرتدّ الكيد إلى صدر صاحبته، ينفُث سمّه في عروقها، فيطفر دفقًا من الكلام المقذع على لسانها، وزبدًا كثيفًا يغمر شفتَيها. وفي ذروة هياجها عادَت، كما تفعل في ساعات الغضب، إلى صورة المرحوم، تناجيها، تؤنّبها: «خلّفك ومات،

وخلّف لي القهر والتعتير؛ اللّه يحرق باطو، تركني أخدم صرامي الناس حتّى أُطعمكِ يا بنت الـ...».

ولم تكمل، كمَّت فمها يد قويّة.

كان بو دعّاس ينتظر هذه اللحظة، كان يعلم أنّ الأرملة لم تستهلك غضبها في الليلة الماضية.

لم تكن ألماس الأرملة الوحيدة التي يحضنها جناحا بو دعّاس، ولكنّها جارته، والجار أَولى بالمعروف.

دفع الباب بلا استئذان، ودخل. كان يرتدي «قمبازه» الرماديّ المقلّم، ويشكل طرفه بحزام الخصر، ويعتمر طربوشًا لا يُفارق رأسه حتّى في أشدّ الأيّام حرًّا. ومن الفتحة، بدا سرواله الكتّانيّ الأسمر متهدّلًا، ونفر من وجهه شاربان كثّان هما أبرز معالمه، إذا استُثنِيَت عينان صغيرتان تذكّران بعينَي صقر عتيق...

سافر في مطلع الشباب إلى أميركا؛ حملَته الباخرة، فيمَن حملَت، قُبيل الحرب العالميّة الأولى. انطلق وراء الذهب، والرخاء، وخلّف والدَيه وقريته الرازحة تحت نير الحكم العثمانيّ. ولم تطل غيبته؛ فما كادَت البلاد تتنفّس، بعدما حطَّت الحرب أوزارها، حتّى عاد، متخلّيًا عن الذهب والأحلام الزمرّديّة لرفاق الرحلة.

ولا يعلم أحد لماذا رجع بو دعّاس؛ وهو لا يتحدّث عن أيّام الهجرة، اكتفى بعبارة مختصرة: «ما لايَمني جوّ البلاد!».

وساعة داس تربة القرية خلع البرنيطة والبدلة الفرنجيّة، وعاد إلى السروال والقمباز والطربوش، وتزوّج جميلة؛ وقد اختارها من بين الفتيات جميعًا، وأنعم اللّه على الزوجين بالأبناء، وعاش الجميع من خيرات الأرض مدّة، حتّى كبُر الأبناء، وخرجوا عن نطاق إرادة الوالد، فهاجروا، وتفرّقوا في بلاد الغربة. لم يرضَ بو دعّاس عن سفرهم، ولكنّه لم يعترف لأحد بسريرته. وظلّ في جلسات السمَر يُعيد ذكرهم، ويُفاخر ببطولاتهم والمعجزات التي يجترحونها: «دعّاس، وفّقه اللّه، فتح مخزنًا في قلب مدينة نيويورك، شركة مع أخيه سليمان. وفرهود أصبح مديرًا لشركة كبرى. وسلمى، البنت الوحيدة، كان نصيبها في البرازيل، تزوّجَت مليونيرًا يملك مناجم ذهب».

هكذا قرّر الأب أن يُقسّم الرزق على أولاده، ويوزّعهم في الزوايا الآمنة التي خلقها خياله. وهي تختلف عن الواقع، عن الأجواء القاتمة التي تتحدّث عنها رسائل المهجر، رسائل الأبناء الكادحين، وهم يعتذرون عن الكمّية القليلة من النقد: «الأحوال عاطلة... الشغل واقف، والغربة... يلعَن أبو الغربة!».

أم دعّاس وحدها كانت تدري، وتصمت. كان يروقها الحديث الشهيّ على لسان زوجها، فتقرب من التصديق، وينشرح صدرها، ولكنّ الحقيقة تعود فتسفر عن وجهها في الرسائل الشحيحة، المقتضبة، فتهيج آلامها، وتشعر بأنّ الدنيا لا تحملها. كم تمنَّت لو تنشقّ الأرض وتُخفيها، هي المرأة الضعيفة، وحدها تزحف في طريق الشيخوخة، نحو الغيوم الرماديّة، نحو الآخرة. وتخور قواها، فتحتمي بالصلاة. شفتاها أبدًا تصلّيان للسيّدة العذراء، خصَّتها بصدر الدار (السلام على اسمها العذرا) وجعلَت عند قدمَيها «مزهريّة» تملأُها يوميًّا بغصون الحبق واللاونده، تسقيها من دموع العين، وتقرع أمامها صدرها: «يا عذرا، استلميهم، مالي غيرك».

كانت تُقيم الصلاة سرًّا عن زوجها، بعدما استخفّ بها أكثر من مرّة: «العبادة في القلب يامّ دعاس».

وهكذا بدأَت تغتنم فرصة غيابه لتصلّي. وإذا صادف وفاجأها ساجدة، تمتم بضع كلمات غير مفهومة، وكأنّه، هو نفسه، يخشى سطوة العذراء. ثمّ تراجع كأنّما يتنصّل بذلك من ضعف زوجته.

كان يأبى أن يظهر ضعفه البشريّ ليبقى في نظرها البطل المنتصر، لا المهزوم الذي عاد من بلاد الغربة معدمًا.

مسح ذكرى أيّام الغربة من ذهنه؛ كان يُذيبها كلّ يوم في حرارة كفّيه، وفي كلام فضفاض يرغو على شفتَيه. وتمكّن من إقناع أهل القرية بأنّ عودته كانت قمّة البطولة والجرأة؛ هو طاقة هامّة لا غنى للقرية عنها، فهو مرجع في ساعات الضيق، ومعين حكمة لا ينضب.

وكان اندفاعه يتزايد حين تخصّ القضيّة إحدى الأرامل، واكتسب مع الأيّام لقبًا طريفًا: «بو الأرامل». وكانت ألماس أرملته المفضّلة؛ تبنّاها واحتضن قضاياها، وجعلها تأمن جانبه، وتحسبه سندها ومرجعها في الملمّات. واستطاعَت أن تغفر له، مع مرور الأيّام، نقطة سوداء لا تطيق هي أن تذكرها.

كانت «غاطسة» في الحداد إِثْرَ وفاة المرحوم، وحدها في ليلة ظلماء، وقد انفضّ من حولها الناس، بعدما قدَّموا واجب التعزية، مخلّفين لها الأيّام السوداء. وحدها قرب نار باردة، وابنتها غارقة في النوم؛ وسمِعَته يسعُل على عتبة الباب، ثمّ يُناديها بصوت متردّد: «وحدك يا ألماس؟».

لا تدري لماذا ارتعشَت، ثمّ انتفضَت واقفة تدعوه إلى الجلوس.

بدأ حديثه عن المرحوم، وتدرّج إلى حاجاتها اليوميّة، ثمّ انتدب نفسه وصيًّا عليها وعلى ابنتها: «للجار حقّ لازم يا ألماس».

وهزَّت رأسها باستسلام حزين: «غمرتنا بفضلك يا بو دعّاس، اللّه يوفّقهم في غربتهم ويرجّعهم بالسلامة».

قذف الزاوية بنظرة حذرة؛ وحين اطمأنّ إلى أنّ الطفلة غافية، تهدّج صوته، وانتفخَت عروق يده وهي تختلس سبيلها إلى يدَي الأرملة، فتضغط عليهما: «بعدك بعزّ صباك يا ألماس، فكري بحالك شوي».

كانت عيناه مسلطتين على وجهها وعينيها، وأحسّ كأنّه انتصر، ولكنّ مقاومتها تغلَّبَت عليه؛ فانتفضت كالقطّة، وسحبت يديها من يده، ورشقَته بنظرة مؤنّبة؛ فعاد يتمسّح بالموقد، يبحث عن الكلمات فتتعثّر على شفتيه: «لكِ عندي معزّة كبيرة يا ألماس... لا تفكّري، ما قصدت، لا سمح اللّه».

ووقف مع آخر كلمة، ثمّ خرج من دون أن يودّعها.

انقطع عن زيارة الكوخ بضعة أيّام، وطمرَت ألماس ما حدث في رماد الموقد؛ كان كبيرًا في نظرها، فلم تقوَ على إسقاط صورته من عينيها.

ومرّت الأيّام، ونسيَت الأرملة ليلة التجربة، وظلّ بو دعّاس الجناح الكبير الذي يغمرها وطفلتها، يذرّ الأمن في أجواء منزلها الواهي.

وها هو يعود إليها في أوقات الضيق ليقوّي أنفاسها ويُشدّد عزيمتها.

كانت ريّا ممدّدة على الفراش، فما كادَت تسمع صوته حتّى هبَّت واقفة، تحاول الهرب. كانت يده أرشق منها، أطبق بقبضته على زندها المعافى، فأحسَّت بموجة اشمئزاز تسري في عروقها، وتقلب أحشاءها. ودَّت لو تتقيّأ في وجهه كلّ ما في معدتها وما يحمله لسانها، ولكنّ جرأة الليلة الفائتة فارقَتها وتركَتها شلوًا ضعيفًا، لا قدرة فيها على المقاومة.

بو دعّاس تحوّل في ذاتها منذ أكثر من سنة؛ لم يعد البطل المنقذ، باتَت إرشاداته تُثيرها، تُضحكها، وتدفعها إلى التشفّي وإعلان العصيان، وتسبّب لها الغثيان في مثل هذه اللحظة...

إنّه لا يتوقّف لحظة عن ذكر الفضيلة والعفّة؛ أحاديثه مرطّبة بالكلام عن الشرف، وشرف البنت بصورة خاصّة؛ لوح الزجاج، إذا كسر فلا يمكن أن يُجبر.

وفي أيّام السذاجة، كانت ريّا تشرب كلماته، فتطلّق فورتها ومرحها وتكفّ عن العبث والسخرية من مخّول، الدمية الغبيّة بين يدي بو دعّاس. كان يحمله فوق راحتَيه، يدفعه إلى أنفها، يسدّ به أنفاسها ومجاري الحريّة والانطلاق، يريدها أن تقبله شريكًا لحياتها. ويذعن مخّول لآراء بو دعّاس، فيرافقه إلى السهرات الطويلة، في ليالي الصيف المقمرة، على «سطيحة» الأرملة.

ظلَّت ريّا ترى في ما يدور حولها مغامرة مسلّية، تقتل بها وقتها، وتقطع حبل الانتظار والرتابة، ولم تفكّر في الأمر جدّيًا. لذا ظلّت تتقبّل مظاهر الحشريّة من أُمّها وبو دعّاس، بصدر رحب، وهما يمعنان بدفع الشاب إلى سبيلها؛ أُمّها بدافع انقيادها الأعمى لآراء بو دعّاس، وهو كانت تلك هوايته، يمارسها على أهالي القرية وينتشي وهو يُبصر الآخرين يتراقصون فوق أصابعه كالدّمى، يتلاعب بهم، يقرّر مصائرهم.

هو قدرهم.

وفي إحدى تلك الأُمسيات، كان الثلاثة جالسين يسهرون: بو دعّاس منتشٍ بقرقرة النارجيلة، والأرملة ترتاح من تعب النهار، ومخّول، بين الاثنين، كلب بلا أنياب.

ظلّت ريّا في الداخل، تتشاغل بأعمال منزليّة، وتردُّ على ندائهم، فتخرج لحظة ثمّ تهرع إلى مكانها، تحتمي بالسقف والجدران من الطغيان الأبله.

أوصتها أمّها بإعداد القهوة، وبعد لحظات لحقها مخّول وحده... اقترب منها ووقف يمسك أنفاسه المضطربة؛ وحين شاءت أن تخطو خطوة، وقعَت بين ذراعيه، فأطبق على عنقها يقبّلها ويتمتم كلمات مسطّحة رخوة.

تركَت إبريق القهوة يفور، وأنشبَت أظافرها في وجهه، في عينيه: «يا وحش...».

تراجع جزعًا وأسند ثقله إلى الحائط، فسقطَت مقلاة نحاسيّة فوق كتفه، فأمسكها ووضعها على الرفّ، من دون أن يرفع عينيه عن وجه ريّا، وظلَّت أجفانه ترفّ، وشفتاه مفتوحتين ببله، ولم يجد في تلك المناسبة منفذًا سوى الكلام؛ كلام مستعار، عبارات فارغة ممجوجة تختزن من جيل إلى جيل لتستهلك في مواقف الضعف: «بحبّك يا ريّا، الكلّ قالولي، سامحيني... اغفري لي».

لم يحلم بو دعّاس والأرملة أنّ الشابّ سيندفع إلى هذا الحدّ.

قذف الكهل كلماته، مصطنعًا البساطة وعدم الاكتراث: «يا مخّول... الصبايا بيحبّو المسايرة، بدّك تبقى تسايرها للبنت، كلمة من هون، حركة لطيفة، ولو، أنتَ شابّ».

ووافقته ألماس، وهي ترسم في خيالها صورة حلوة تضمّ ابنتها وصهرًا آدميًّا مثل مخّول: «قُم ساعدها بتحضير القهوة».

نفض خجله واندفع نحو الباب، والعيون الأربع عالقة في ظهره. وعادَت العيون تلتقي في صكّ موافقة، تلاه ابتسام هادئ وقرقرة مسحوبة من أعمق أعماق النارجيلة.

ها هو يقف أمام ريّا، لا يدري كيف يعتذر ويُصلح الخرق، ويمحو اللحظة الثقيلة التي فصلَت بين دخوله المطبخ وخروجه منه. وبلا شعور، راح يبكي بكاءً ضعيفًا مثل طفل مجروح... وكانت ريّا قد أدارَت له ظهرها وصمتها، وراحَت تكمل إعداد القهوة، وتصفُّ الفناجين، وكأنّ شيئًا لم يحدث. ثمّ، وكأنّما طرأ على بالها أمر مفاجئ، تركَت كلّ شيء واندفعَت نحو الشابّ الواقف خلفها، وأطبقَت على فمه بقبلة وحشيّة: «وهاي كرمال بو دعّاس... ما تزعل يا مخّول».

ثمّ حملَت الصينيّة، ومشَت أمامه فوق رؤوس أصابعها، مشية مختالة راقصة، وكأنّما نجوم السماء وقعَت في كفّها... وحسبَت أنّها انتصرَت ولو مرّة واحدة على بو دعّاس وأمّها، على الحبال الطاغية التي تشدّها من كلّ عرق لتربطها بمصير لا تحلم به ولا تعلم عنه شيئًا.

ولم تدرِ ريّا أنّها كانت تستهلك وسيلة الانتقام، وتدفع الشاب إلى التعلّق بها، فيملأ كأسه بأحلام ووعود أُسيء فهمها.

القبضة الحديديّة ما زالت تضغط زند ريّا، مدَّت يدها ببطء وغرزَت أطراف الأصابع بين زندها وكفّ الكهل.

فعلت ذلك وشفتاها مطبقتان وعيناها مسلطتان على عيني بو دعّاس، تحملان إليه أقوالًا فهمها، فتراخَت يده وسحبها، ثمّ بحث عن أقرب كرسيّ تكوَّم فوقه، وقد فارقته قدرته على الكلام.

كبُرَت الفتاة فجأة، كبُرَت مثل شجرة حور، وراحَت تتعالى إلى قلب الفضاء، بشموخ، بتحدٍّ؛ راحَت ترتفع مستقيمة، واضحة، تنشر أغصانها وأوراقها في الهواء الطلق، تتعرّى للشمس، فتملأ جسدها بقُبل العافية، تفتح رئتَيها للنسائم، فتهبّ عليها حاملة عبق الوزّال وعبير المروج.

عالية شجرة الحور.

وها هي تنحني من ارتفاعها، تمدُّ قِمّتها إلى أنفه، تشدُّه، تدفعه إلى نقطة سوداء عميقة، يغور فيها. وعبثًا يحاول الوصول إلى قعر، إلى مستند، والنقطة تحفر في عينيه، وعيناه تلاحقانها. ويحاول أن يمدّ يديه ليردّ التراب على النقطة، الثغرة، وتصبح يداه صدفة صغيرة في بحر مترامي الأطراف، فيغرف ويغرف ويظلّ يغرف من البحر لعلّه يملأ الثغرة، يُغطّي عينها السوداء. ويُدركه الخوار والنعاس، فينام ولا يتخلّص من عذابه. وتعاوده الثغرة في المنام كابوسًا مرعبًا، تنفتح على شكل هاوية، وقوّة غريبة تدفع جسمه إلى الفوهة. وتتدلّى الرِّجلان، والقعر بعيد، ولا حبال حوله يتعلّق بها، ولا جدار يستند إليه. حتّى الصوت يخونه، وتموت صرخاته طيّ جدران صدره.

وها هي الثغرة تعود تنفتح في عيني ريّا السوداوين، فينتفض وينهار فوق الكرسيّ.

لم تكن زيارة بو دعّاس بدافع الغيرة على الأرملة وابنتها، كما تخيّلت ألماس. لقد قضى الرجل ليلة بيضاء؛ كان يخشى، إن نام، أن يُعاوده الكابوس وتشدّه الهاوية وتذري في عينيه الحمم والرماد؛ رماد تكدّس في وجوده، مع الأيّام. حاول جهده ليتخلّص من ريّا، يزوِّجها، ويدفن بذلك آثار الكابوس.

كانت الذكرى ثوبًا شائكًا يلفّ جسمه، ويعجز عن خلعه. كلّ يوم كان يقوم بمحاولة جديدة لسلخ ذلك الثوب عن جلده، ولو من الخارج. وكانت الأيّام قد علّمته أنّ التجربة مرادفة للوجود، وما يمرّ به كلّ يوم، لا يستطيع أن يخلعه في

لحظة. وتتكدّس التجارب طبقات في ثنايا الذاكرة فتؤلّف الوجود، كما تؤلّف طبقات الصخور والتراب وجود الأرض؛ والذي يبدو للعين ليس سوى القشرة.

عادَت به الذاكرة إلى ذلك الصباح؛ كان ممدّدًا فوق السقيفة، يرشف قهوته ويسرّح بصره صوب الكروم وكوخ الأرملة، ولمحها، وكأنّه يراها أوّل مرّة.

كانت ريّا خارجة من الكوخ، تردُّ جرّتها الفارغة على كتفها، وقد تهدّل شعرها فوق كتفيها بإهمال مستحبّ، وأشرق في وجهها صباح ربيعيّ.

تطلَّعت إليه ترشقه بتحيّة الصباح، كعادتها. ونسيَ أن يردّ عليها وهو مستغرق في تأمّل مشيَتها وقياس حركاتها.

بدَت لعينيه وردة تتفتّح بتلاتها تحت نور الشمس، وتكشف عن قطرات الندى في قلبها. وأحسّ أنّ الغشاوة التي أسدلَت فوق عينيه أُزيحَت مرّة واحدة. شعر بأنّه انتهى لتوّه من قضم تفّاحة المعرفة، وطلَّق عماه، فسرَت في عروقه رعشة كانت قد فارقَته، دفَنَتها رتابة الحياة، وطواها مرّ السنين، وها الصبيّة توقظها بلا علم منها، ولا عناء...

راح يهبط سلّم العمر هبوطًا لذيذًا تمتّع به سرًّا، وظلّ السرّ يتدحرج في صدره، يهزّ عروق الحياة، يوقظ الأيّام الماضية.

أقبل صيف ذلك العام ليزيد رقمًا جديدًا على السنوات الثلاث عشرة. وارتفع عنق الوردة فبدَت قبلة للأنظار، تحطّ فوقها بنهم، تستهين السلوك إليها... كانت وردة في حديقة بلا سياج، وبينما الوردة تتثاءب وتتمطّى على كتف الطريق امتدَّت أشواكها إلى مضجع الكهل.

حاول أن يردّ التجربة فباء بالفشل؛ وراحَت الأشياء الأخرى تعكس له صورة ريّا، تكبّرها، تزيد في صقلها.

وجه أُمّ دعّاس المرهق... وجهها الرماديّ المخدّد، كان يحمله على الهرب إلى عالم بعيد، يرى فيه كلّ الأشياء خدودًا متورّدة نضرة.

يكون ممدّدًا فوق طرّاحة في صحن الدار، وزوجته تروح وتغدو، تجرُّ رجليها قسرًا، وتسند خصرها بيديها، وإذا هي تتلاشى خلف أسلاك شفّافة. يبصر من خلالها ريّا، تقفز بزهو، وينفر صدرها، ويتحدّى، وتطفو ضحكتها الساذجة فقاقيع مرح مصفّى.

هرب من التجربة إلى كلّ مكان؛ احتمى بالطبيعة، بالكروم وحقول الزيتون، فكانت تطلُّ عليه من كلّ شيء؛ من عناقيد العنب المتعافية، من عبق التراب الرطب، من خيوط الشمس في الصباح والغروب، من زقزقة العصافير فوق الصخور.

احتمى بأيقونة العذراء، سجد أمامها وقرع صدره، كما تفعل زوجته، وبكى. طلب أن تمنحه القدرة على المقاومة؛ وتفترّ شفتاه عن بسمة غامضة وهو يذكر كيف احتال على أُم دعّاس ليخلو له الجوّ مع العذراء: «روحي وحدك، عالكروم... أنا تعبان».

ووقف في الباب يشيِّعها بنظرات قلقة، حتّى إذا اطمأنّ إلى غيابها عاد يسجد أمام الأيقونة، ولا ينسى الشكّ الذي خامره: «يخزيك يا شيطان».

كان الطلب واضحًا جدًّا حين اقترب من الأيقونة: «أن يرتدّ عن التفكير بالصبيّة»، ولكنّه لم يلبث أن سبح في بحر من الأفكار الغريبة.

كان في ملامح العذراء ما ذكّره بها، ولم يعد يدري؛ أيطلب مساعدتها على نفسه أم على ريّا.

يذكر جيّدًا أنّه نهض عن الأرض أشدّ ارتباكًا، وأحيانًا يفكّر في أنّ كلّ ما حصل كان بسبب العذراء؛ اعتمد عليها فلم تنجده... وفي تلك اللحظة أقبلَت ريّا، يسبقها صوتها: «خالتي أم دعاس... خالتي أم دعاس».

لم يُجبها صوت... وهو فضّل الصمت.

كانت مقبلة لتقترض حاجة من حاجات البيت.

وكان في إمكانه أن يرشقها بصرخة تجمّدها على العتبة: «خالتك أم دعاس بالكروم»... ولم يفعل.

عاد يستنجد بالعذراء، فأحسّها تغمزه بطرف عينها، وهي تنحني بوداعة تقصم الظهر «خالتي أم دعاس، وَينك؟».

الصوت يقترب، يدوي في أُذُنيه، يتفجّر أمامه كالصاعقة، ثمّ يتفرّع وتمتدّ أصداؤه في جنبات البيت، أصداء تتكوّم على سمع الكهل، وتخبط رأسه بمطارق من حديد، فيزوغ بصره ولا يعود يبصر شيئًا.

ويفتح عينيه راجعًا من غيبوبته، فيُبصرها أمامه، تحدّق إلى وجهه ذاهلة، صورة معكوسة عن العذراء، فيسجد أمامها ويحتويها بين ذراعيه: «يا عذرا،

ساعديني» وفي غيبوبته تلك، مرّغ شاربيه على ساقيها، وقبّل قدميها والحذاء، وانهمرَت دموعه غزيرة، فوق القدمين والأرض.

وحين عاد إلى وعيه، كانت يداه تضغطان جسم الفتاة وهي تحاول الإفلات منه، وقد اختنق صوتها، وامتدّ الرعب إلى عينيها، ثمّ انتقل إلى عينيه المبتهلتَين فلم تعودا عينَي مؤمن يستعدّ لتقديم الذبيحة.

وماتت يداه حول خصرها فنسيَهما هناك...

مدَّت أناملها ببطء، وغرزَتها بين ثوبها وكفّي الجار، ولم تعُد تنظر إلى عينيه.

نفض الصورة من ذهنه وهو يهوي فوق الكرسيّ، ونفرَت ريّا إلى السقيفة المطلّة على الوادي.

كان ذلك المكان الوحيد الذي يُحرّرها، كان نقطة إشرافها على عالم بلا جدران.

اتّكأت إلى جذع الكرمة، وسرَّحَت بصرها بعيدًا. كان شعور التحدّي قد فارقها، مخلّفًا تعبًا لذيذًا سرى في عروقها إلى أطرافها، ورفضَت أن تُحاسب نفسها على ليلة الأمس. مسحَت الصورة من ذهنها وهي تصارع شعورًا جديدًا راح يرتفع في صدرها ويشدّ أعصابها.

كانت وقفَتُها بين عالمين: عالم يمتدّ مسافات شاسعة من الخضرة وأشعّة الشمس والهواء الطلق، وعالم حياة يدعوها لتهرب إلى الأرض، تحتمي بجوارها، تُعانقها، وتذرف بين يديها الدموع. وتطفر من عينيها دموع دافئة تزيد بناء الحبّ في صدرها، فتمدّ يديها تحاول الطيران والإفلات من قيودها وكوخها المظلم، وتصبح فراشة ترفّ فوق الحقول، ترقص في نور الشمس وهبوب الرياح...

وتقطع عليها وحدتها همسات تهرب من العالم الداخليّ، فيتّقد الحقد في صدرها؛ حقد شائك لا تدري كيف تنزعه من نفسها... كيف تضرم النار لتحرقه وتسلخه من وجودها.

تقول له: «أكرهك».

وبماذا يُجيبها بو دعّاس؟ يُقهقه... ويفتل شاربَيه... ثمّ يُسوّي طربوشه ويقذف عبارة فلسفيّة.

كم تتمنّى لو تمزّق وجهه، هذا الماكر.

ويُسيطر عليها شعور العجز؛ تراه ثعلبًا يجاور خمّ الدجاج: أمّها دجاجة وهي فرخة ضعيفة. الدجاجة مهصورة إلى حدّ الاستسلام... والفرخة لا كيان لها، تعيش بين منقار الدجاجة وأنياب الثعلب.

وألماس؟

هذه المرأة جثّة، لو يتسنّى لها أن تدفنها وتستريح، وتستطيع الهرب إلى الجزيرة النائية، مرتع أحلامها؛ جزيرة بلا بشر، لا يصلها جيرانها، ولا تبلغها أنياب الثعالب.

لن تكون وحدها في دنياها تلك، سوف يرافقها شابّ لا يشبه مخّول، ولا صورة أبيها.

تكاد تُبصر صورته؛ لمحَته مرّة وهي تملأ جرّتها من العين. كانت ترتدي ثوبًا باهت الألوان، وتنحني فوق الجرّة تستعجل امتلاءها، والضجر يأكل عينيها وشفتيها. وسمعت هدير سيّارة، فلم ترفع رأسها حتّى انطلق الزمّور، وكأنّه نداء خاصّ. وتطلَّعَت، فأبصرتهم: جماعة من شباب القرية النازحين، شباب يرتدون القمصان النظيفة، ذقونهم ناعمة... ويضحكون... وصلَتها ضحكاتهم من نوافذ السيّارة. واحد منهم لم يكن يضحك، كان يتطلّع إلى عينيها؛ وبكلّ تحدٍّ، بادلَته نظراته، ثمّ تذكّرَت ثوبها وشعرها المشعث، فتراجعَت تبحث عن وسيلة تدافع بها عن نفسها، فمدَّت لهم لسانها وحملَت جرّتها وهربَت إلى الكوخ.

– شو بدنا نعمل يا بو دعّاس؟

وتكوَّمت الأرملة على الحصير أمامه كتلة من الهمّ الخاضع الذليل.

كان الهمّ «يُبرطع» فوق تجاعيد وجهها فيزيدها قساوة وجفافًا، وأثقلَت المذلّة عينيها فانكسرتا.

لم ترفع بصرها إلى وجهه، ركَّزَت نظراتها على نقطة واحدة، على الأرض؛ وظلّ رأسها يترنّح بهدوء حزين، وكأنّه منفصل عن بقيّة الجسم.

بقِيَ بو دعّاس صامتًا، يفكّر في وسيلة لإنقاذ الأرملة من الفضيحة، وتركّز الجدّ فوق شاربَيه والطربوش المنكّس.

ردّ طرف «القمباز» على ركبَتَيه استعدادًا للعودة من الهاوية، وأخذ يجمع الخيوط الموزّعة، خيوط حيَل لا تعصاه. ثمّ تنحنح وسعل وخفَتَ صوته؛ كان لا بدّ من الضربة الأخيرة:

– يا ألماس، ما عاد بدها... البنات ما بتنترَك عا راسها... ما متِّ، ما شفتِ مين مات؟

– دبِّرنا اللّه يحفظهم بغربتهم... يا ويلنا من لسانات الناس.

وراحَت تفرك كفَّيها ببؤس.

– عندي حلّ واحد يا حرمه... زوّجيها... هالصبي قاتل حالو، وإنتِ لك خاطر، تبقى البنت... شو البنت بيحسبو لها حساب؟

– وشو بتريد نعمل؟ أنتَ فصِّل ونحن نلبس.

قذف الطربوش إلى الوراء، وراح يهرش رأسه، ثمّ سوّى طربوشه وعاد يتابع الحديث:

– شو بتقولي بالخطيفة، يا ألماس؟ أنا بِكفَل الصبي. تبقى مساعدتكِ؛ دبّري حيلة على البنت... تمشّي معها عالكروم...

سرَت كلماته كالرعد في عروقها، ورفعَت عينيها إلى وجهه، وقد غشيَهما رعب، لم يلبث أن تلاشى أمام نظراته الآمرة:

– والعالم يا بو دعّاس، شو بتقول الناس؟

فأطلق ضحكة ماكرة مثل «شحطة» الجاروش، جفَّلت الأرملة وأعادَتها إلى الصمت:

– همّي خلّصك من لسانات الناس... هالبنت ما راح تجيب غير العار، زوّجيها وارتاحي!

لم يكن صعبًا أن يُقنع الأرملة؛ وانتهَت الجلسة بتحديد موعد لعمليّة الخطف، مساء اليوم التالي، لتأتي الضربة والحديد حامٍ – على رأي بو دعّاس.

ولما اطمأنّ إلى تسوية الأمور، وقف يهمّ بالذهاب، فأبصر ريّا عند العتبة.

خشِيَ أن تكون قد سمعَت شيئًا من الحديث، ولكي يجسّ النبض، لجأ إلى مداعبتها، فلم يظفر بردّ فعل.

خرج وقد بدأَت أظافر الشكّ تحفر في صدره، وتدفعه إلى استعجال العمليّة، كي لا تبوء بالفشل.

كانت ريّا في الباب مصادفة، واشتمَّت في الجوّ رائحة غريبة، تنضح بالسرّية والاحتيال. ولم تكترث؛ كانت تعرف جلسات بو دعّاس.

أفاقَت القرية مثل خليّة النحل؛ كان اسم ريّا فوق كلّ لسان، نشطَت «صبحيّات» القهوة وعقدَت الجلسات الطارئة فوق السقائف.

وهبَّت نسمات حارّة تلفح وجوه الناس وعناقيد العنب في الكروم، وارتفعَت الشمس بثقل رزح فوق الأجفان، ودفع أسراب الذباب إلى صدور المنازل.

كانت الحادثة حصاة سقطَت في بئر، جرثومة حلَّت على جوّ حياديّ ساذج. خشِيَ أهل البنات على الكنوز الغالية، وراح كلّ واحد يفكّر في طريقة للخلاص.

والأحاديث تضخَّمَت بالتشفّي الماكر... الشعور الذي يغزو قلب الإنسان حين يُبصر المصيبة تحلّ بسواه، وتوفّره هو.

بدا كلّ فرد مستعدًّا لأن ينشب أظافره وأنيابه في جسد الضحيّة، فقد وقعَت ريّا في فلاة بلا جدُر ولا سياج.

وكان لا بدّ للأرملة من الذهاب إلى عملها، مصدر اللقمة، فشدَّت «القمطة» حول رأسها وانتعلَت حذاءها، ثمّ توجَّهَت إلى دار البك.

لم ترفع بصرها عن الأرض... كانت ترشق الجيران بتحيّة الصباح، وتحسّهم يزيدون وجودها ثقلًا؛ نظراتهم تكبّل قدميها بالسلاسل، وجوههم تطلّ من النوافذ، من فوق السقائف والسطوح... تلاحقها، تعذّبها... حتّى الأطفال كانوا مطّلعين على الفضيحة، فقد سرَت في عروقهم كالخدر، وراحوا ينادون أمّهاتهم بسذاجة غليظة، ويشيرون إلى ألماس: «أُمّي... عجّلي... تعي شوفي ألماس».

ولم يكن للأرملة حول ولا قوّة؛ الستار من حديد، ويدها ضعيفة، ضعيفة، لا تستطيع رفعه... وشفَت غيظها بكلمات مستعجلة مبهمة لم تتجاوز حدود

الشفتين: «ألماس فرجة يا ولاد الكلب... يبعتلها العمى اللي ذلّتني».

ومن بعيد أبصرت بهيّة، أُمّ البنات، تسند جثّتها السمينة إلى جدار بيتها، وقد ظلَّلت عينيها بإحدى كفّيها، ووقفَت مقابل أُمّ سليمان وقفة جدّ واهتمام.

كان الحديث عن ريّا.

ولم تصدّق الأرملة متى وصلَت باب البك، فولجَت المطبخ محاولة، ما استطاعَت، تجاهل النظرات الواجمة التي تسلّطت عليها تسلقها سلقًا... ثمّ لم تلبث أن نسيَت نفسها وهي تتحرّك بين القدور، توقد النار، تعدّ الطعام، تسهم مع نساء القرية في وليمة عرس البك.

عشاء العرس... والقرية مدعوّة بأسرها، لتأكل وتشرب على حساب العريس.

نُحرَت الخراف على عتبة الدار، وأقبلَت النساء يساعدنَ في طبخ الفرح... المناسبة تُفرح الجميع.

تمنَّت الأرملة أن تنسى ما حدث، ولو لحظة واحدة، وتشترك مع النساء في إطلاق الزغاريد والنوادر... وانهار جدار الصمت بينها وبين النساء، حين أقبلَت نظميّة، خطيبة القرية، تسأل عمّا حدث، وكأنّها حديثة الاطلاع على الموضوع، كأنّها لم تستهلك الحكاية بين مساء الأمس وصباح اليوم التالي!

لم تردّ عليها الأرملة؛ وماذا تقول؟ «خلّيها في القلب تجرح ولا تِطلع برّة تفضح»...

وهكذا قرَّرَت أن تحتفظ بآلامها في عزلة عن حشريّتهنّ.

أهملَتها نظميّة، وانطلقَت إلى قاعة «الصمدة» وكانت العروس تحتلّ صدر القاعة، وقد رُفع لها عرش بدَت فوقه ملكة، تاجها شعر صفّفَته أيدي الصبايا.

راق المشهد نظميّة وحرّك شاعريّتها، فراحَت ترشقها بالزغاريد... ولمّا أفرغَت ما في جعبتها، ارتدَّت إلى المطبخ راضية سعيدة، وقد أسدلَت ستارًا على حكاية ريّا لتفتح صفحة جديدة تشغل بها النساء...

لم تكن نظميّة مهتمّة لـ«جلوة» العروس، وإطلاق زغاريد الغزل، ولكنّها بارعة في التمثيل، ترتدي لكلّ مناسبة زيّها الخاص... وفي حركتها وسعيها، خلال تلك اللحظات، كان يشغلها موضوع واحد: كيف سارَت الأمور بين العروسين؟

والجواب ليس صعبًا، ولا يتعذّر الوصول إليه عن طريق الأَم والحماة. ولكنّ المرأة بحّاثة، لها طريقتها الخاصّة، ويمتعها أن تكتشف بنفسها مادّة روايتها، وكان الاكتشاف يحتاج إلى إقامة جسر وصول، فاستغلَّت طاقتها على إطلاق الزغاريد.

كان وجه العروس، لدى أوّل زغرودة، خاليًا من كلّ تعبير، وكأنّها تنبَّهَت فجأة وهي تسمع الكلمات المنمّقة تصوّب إليها، تروي حكاية جمالها وروائها، فمدَّت أناملها تسوّي أطراف ثوبها، ثمّ حَنَت العنق قليلًا وكسرَت أجفانها، وظلَّت تصغي لما يُقال في حسنها المشرق.

وظلّ العريس منهمكًا في تأمّل صبيّة صغيرة راحَت ترقص رقصة بدائيّة خفيفة، ونظميّة مثابرة في ملاحقة مهمتـها. وأقبلَت بهيّة في تلك اللحظة، تحمل همّة العمل في ساعدَيها، وعشرات الأسئلة فوق شفتيها، والتقَت نظرات المرأتين على تفاهم وسيلته الغمز والإشارة، وطرحَت بهيّة سؤالها للتوكيد:

– كيف الحالة يا نظمية؟

– عالكيف... وبنتك، ياختي، غطَّت على العروس... اسم اللّه عليها هالمُنى.

ولم تُبدِ بهيّة انفعالًا ملحوظًا، وكأنّ هذا الأمر مفروغ منه. لم يكن جديدًا عليها أن تسمع إطراء جمال بناتها، وكانت تتلذّذ باستعادة العبارات، مفتعلة اللامبالاة... وتابعَت نظمية:

– بنتك راسها ثقيل... عقلاتها كبار مثل التسعينية.

العبارة الأخيرة طرحَتها بلا مبرّر، فوخزَت أذن ألماس ودفعَت الغيظ إلى أن يطغى عليها، ويعمي بصرها بالدموع.

أفرغَت نظمية جُعبتها وعادَت إلى قاعة الصمدة، تطفر فوق شفتَيها زغرودة جديدة... وفي هذه المرّة التقطَت الرسالة. لم تلتفِت العروس صوبها، كانت غارقة في عيني العريس، وكان هو مسترسلًا في مداعبتها وقد استكانَت تقاطيع وجهه فبدا أقرب إلى حيوان أليف.

حميَت الشمس، وتغلغلَت حرارتها عبر النوافذ والصدور، تحوَّلَت إلى وحش ينفث لهاثه في وجوه الأحياء. وارتفع صدى التصفيق في دار الفرح... وازداد صمت المساكن الأخرى، فبدَت موصدة النوافذ والأبواب؛ هجرها سكّانها إلى

العرس، وتكوّم الأطفال فوق أسوار الحديقة، بينما توزَّعَت فرق الشباب ترقص «الدبكة»، واصطفَّت الصبايا حول العروس.

وجهها وحده كان غائبًا... وترك غياب ريّا فراغًا كبيرًا، أمّا اسمها فظلّ يخفق فوق شفاههم وفي قرارة عيونهم؛ تكاد لا تلتقي عينان أو تتصادم همستان إلّا على ذكر ما حدث بالأمس.

اسمها، طائر مجهول... طائر خفيّ يُسمع حفيف أجنحته ولا يُرى له شكل.

وهي، قذفها نفورها بعيدًا... رمَت نفسها بين شدقَي الوحش اللاهث بين الكروم، المتربّص في الأودية... شمس تمّوز الضاربة.

هربَت إلى نبع قريب من القرية، سارَت إليه تتوكّأ على عصا صغيرة، ساعدتها في دفع الأشواك من طريقها. ولم تلبث أن نسيَت نفسها وما خلَّفَت وراءها، وراحَت تدندن نغمًا قديمًا، وقد أحسَّت جسمها يخفّ ويتلاشى ثقله مع هبّات نسيم واهٍ، يهبّ من قعر الوادي، ومن فوق تلال الصنوبر.

شعرَت بأنّها خلعَت طفولتها الناعسة؛ خلعَت القرية من كيانها، وهدمَت الجدران، واستولَت على عود الصليب عصاتها. كم ودَّت لو تكون نعجة مثل بنات قريتها؛ نعجة مطيعة ليّنة المراس، تُساق إلى المسلخ أو المرعى، أيّ مرعى... وتستجيب لكلّ نداء، من دون احتجاج.

وفي لحظات الحيرة، كانت تتمنّى أن تصبح تلك النعجة، لتستريح من ضربات مبهمة تخبط جدران صدرها، كلما اصطدَمَت بجدار العالم الآخر. وكان هناك شيء تعجز عن تسميته أو الإشارة إليه، يتهدّم في كيانها، يهدر في عروقها كالشلّال، يملأ نفسها بالنفور، يدفعها إلى أن تهرب وتظلّ في عزلتها، ولا تخرج إليهم إلّا للتحدّي. وظلّ المجتمع بشرائعه ومقوّماته كلّها بعيدًا من إدراكها، وتوقها الطبيعيّ إلى الحريّة وتحطيم القيود.

وهكذا عاشَت غريبة عن دنياها، لا تكاد تظهر فيها إلّا لتحرّك مياهها الآسنة. وفي هذا اليوم لم تجد أمامها ملجأً سوى الطبيعة والنبع الصغير، تتّكئ على كتفه وتمزج دموعها بقطرات مياهه.

كانت الأرض تشدّها إليها؛ الطاقة الوحيدة التي تتحكّم بها، الجاذبيّة القويّة التي تقيّدها بسلاسل الحريّة واللذّة.

وفيما هي غارقة في التأمّل، شعرَت بحركة خلفها، فهبَّت مذعورة... حسبَته الوهم يُرفرف حولها بأجنحته الخفيّة، ولكن شجرة العلّيق تتحرّك! فأجفلَت وانكمش قلبها.

جمدَت في مكانها محاولة أن ترسم وجهًا للطيف المتطفّل؛ وفجأة انفرط عقد الخوف، وتهدّم عند قدميها في ضحكة مكبوتة، وأطلّ وجهه من فوق الأغصان الشائكة... ناجي.

«يا لعين!»

أطلقَتها ريّا وهي تجمع بقيّة قواها، لتركض خلفه، ثمّ تشدّه من أذنه؛ كان أرشق منها، فنفر كالغزال، وراح يركض حتّى طرف الحقل، ثمّ عاد إليها يحمل حفنة من ثمار العلّيق.

«وكيف عرفت مطرحي يا منحوس؟»

سألته وهي تُداعب الثمار الناضجة بين شفتيها.

فتحوّل وجهه من العبث ليرتدي قناع الجدّ... حدَجَها بنظرة تحمل العطف والصفح والمحبّة وما معناه: «كنت هناك بالأمس... لماذا فعلتِ ذلك؟! لماذا ارتميتِ في أحضانه؟ ولمَن كنتِ ترقصين؟».

بلعَت ريّا ريقها، ودعَت ناجي ليجلس بقربها، ثمّ مدَّت أصابعها تتحسّس خروقًا في قميصه الرث: «مزَّقت ثيابك لتختبئ عنيّ؟ مَن دلّك على مكاني؟».

وأمعنَت يداها في تحسّس الخروق فوق الكتفين والصدر، وسارَت اليدان إلى الرأس والأذنين في دعابة حالمة مفعمة بالعطف والهناء.

إلى جانب الطبيعة، كان لريّا صديق واحد، غريب مثلها عن القرية. أبوه وُلد هنا، أمّا هو فقد أبصر النور في بلاد جنوبيّ الحدود، بلاد سمعَت عنها أوّل مرّة عن طريق ناجي، يوم حملوه طفلًا، ليعيش في بيت عمّه.

عاش نبتة بلا جذور، تتلاعب بها رياح الأزقّة وقسوة الأطفال...

تذكَّرَت ريّا أوّل مرّة أبصرَته، وكانت قد سمعَت الحكاية من الرجال، سمعَتهم يتحدّثون عن الأهوال والمآسي عند الحدود الجنوبيّة.

وسمعتها من النساء في جلسات السمر: «صار لازم يتجوّز كامل البلّان، حتّى يربّي الصبي، ما عندكم تزيدكم... هو يكفّي حاله... كان ناقصه هالهمّ».

وتتدخّل إحداهنّ معابثة: «ولك شو قولك نعطيه فوميّه؟»...

وسمعَت الحكاية أسطورة ترويها ألسنة الأطفال، ولكنّ البطل لم يظفر منهم إلّا بالأذى.

أبصرَته أمام دكّان عمران وحوله الصبية في هرج وصخب... كان يقعد فوق التراب، وقد أمسكه أحدهم بطرف قميصه، وراح الآخرون يُطلقون سخريتهم منغّمة، موزّعة على فريقين، يُردّد الأوّل:

«ناجي ناجي بيّو وين؟»

فيُجيبه الثاني:

«بيّو قاعد ناطور العين.»

وكان الغريب الصغير يبكي بدموع صامتة، توقد نار الشماتة في صدور الأطفال، وتشدّد حماستهم لتعذيبه.

ولم تنسَ نظرة مبتهلة رشقها بها، حين اقتربَت تبعد الشياطين الصغار من حوله، وتتعارك معهم، فيشدّونها من شعرها، ثمّ تنجح في النهاية بالإفلات منهم، والعودة بالطفل إلى كوخها... وهناك قدَّمَت إليه الطعام وغسلت وجهه؛ جعلَته دُميتها وسلواها.

ولكنّها لم تنجح حتى النهاية في إنقاذه من شرّ العفاريت... ظلّوا يتربّصون به عند كلّ منعطف، يختبئون خلف جدران المنزل، حتّى إذا خرج من الباب استلموه بالعبث، وراحوا ينقدونه بضراوة، كما يفعل الدجاج بالضعيف من سربه.

وكان الطفل فرخًا صغيرًا لا يحميه جناح أُمّ، ولا يملك يد الأب تردُّ عنه الضيم، وتعلّم بالفطرة كيف يبتكر وسائل الدفاع عن النفس. وعمّه فاعل بالأجرة، لا يكفي نفسه لقمة العيش... ولم يكن للعطف مكان في حياته؛ فقد هبط عليه الصغير هبوط الهمّ.

راح الطفل يقضي أيّامه في الأزقّة، حتّى إذا هجم الليل، رجع إلى فراشه البارد وتهديد عمّه الغاضب.

وظلَّت ريّا واحة أحلامه، يفيء إليها في كلّ لحظة، ويربض على عتبتها كالكلب الأليف، فإذا خرجت لعبا معًا.

وكانا يلعبان كالعادة، حين أقبلَت الأرملة تصرخ وتُهدّد... وطردَت الطفل من بابها: «رحْ انضبْ... يلعن هالخلفة، قَدّ الصرماية وما عاد تتهدّا».

ولم تكن غضبة ألماس بلا مبرّر، فقد ساءَت سمعة ناجي في الأيّام الأخيرة:
«ضرب ابن المختار بالحجر فشجّ رأسه، وسرق خيارات أُمّ الياس... و... ألف خبريّة...».
وراحَت أخباره تكبر وتنمو كلّما تدحرجَت فوق لسان، حتّى بات الطفل الصغير «أرسين لوبين» القرية، بات خطرًا يُهدّد أطفال الآخرين وأرزاقهم...
ريّا وحدها كانت تعرف لماذا يستخدم ناجي الحجارة للضرب، وسيلته الوحيدة الباقية للدفاع عن النفس.
أمّا حبّة الخيار، فقد اعترف بأنّه أكلها:
كان طرف النبتة يتدلّى فوق السياج صوب الطريق، وتطاول الصغير على رؤوس أصابعه في محاولة لقياس قدّه، فوصلَت أنامله إلى الثمرة، وقطفها، وهو يبلع ريقه، ثمّ مسحها بطرف كفّه وقضمها... وأطلَّت أُمّ الياس من الشبّاك فأبصرته.
ارتفع صوتها بالولولة والصراخ... وهرب ناجي.
وحُرّم على الأطفال التكلّم مع الصغير.
تجنَّبوه كالمرض الخبيث؛ وإذا دبَّت العاطفة في صدر امرأة وهي تنحني على جرن «الكبّة» أو تهلّ الخبز المرقوق، حين تبصر أمامها العينين الصغيرتين تحدّقان إلى يديها بتوسّل، كانت تُعطيه اللقمة وتدعوه إلى أن يمضي ويأكلها خارج العتبة.
تحمَّلَت ريّا الكثير من أجله، ولم توصد بابها في وجهه مرّة، فبات يقضي أكثر ساعات نهاره إلى جانبها، وفي خدمتها، وفشلَت محاولات عمّه في إرساله إلى المعهد الرسميّ... كان الصغير يفضّل الحقول الفسيحة على الغرفة الضيّقة، ومناقيد التلامذة.
وكبر، يخدم القرية بأسرها مقابل اللقمة... هو يبتاع الحاجيات من الدكّان، وينقل الرسائل، ويعبّئ جرار الماء.
بات لوجوده معنى جديد، وراقه طعم القروش القليلة يجمعها بعرق الجبين، فراح ينفقها على المحرّمات، ولم يلبث أن اعتاد التدخين.
بدأ يدخّن في العاشرة من عمره، وكان يفعل ذلك بالسرّ، ثمّ راح يُباهي بفعلته، ويتعالى على سائر الأطفال ويُخبّئ اللفافة، لا يُشعلها حتّى يقترب من

مكان تجمُّعهم... ويمضي في نفث الدخان، ورشقهم بنظرات ذات معنى؛ نظرات التحدّي.

وأمام ريّا كان يتحوّل إلى حمل وديع؛ يُطيع الأوامر، يتمسَّح بقدميها، ويقوى على ذرف الدموع.

كان ناجي بين الحضور الليلة السابقة، وأبصرها ترقص، ثمّ تابع كلّ ما جرى... وكان يعلم مدى كرهها مخّول... ولمّا شدّها بو دعّاس من يدها وأوصلها إلى الكوخ، تبعهما، وقضى ليله متسكّعًا في الزقاق، يبكي... وقبل طلوع الفجر، عاد يحوّم حول مسكنها حتّى أبصرها تخرج، فتبعَها إلى رأس النبع.

أُخلِيَت الساحة للرجال، وبقيَت النساء في المطبخ يراقبنَ ما يجري من خلف الأبواب والنوافذ، وسبق بو دعّاس الجميع إلى دار البك ليشرف على إعداد الوليمة.

مُدَّت الطاولات في الحديقة؛ ومع غروب الشمس، بدأ زحف الرجال... جاؤوا فرقًا هازجة، استقبلَتها زغاريد النساء وقرع الطبول.

في مثل هذه المناسبة يدفن الناس أتعابهم وآلامهم، وينصهرون مع الجماعة، يسهمون في إعداد الطعام واستهلاكه، وفي الرقص والغناء.

كانت التقاليد تقضي بأن يأكل الناس ويشربوا مُدّة أُسبوع، على نفقة العريس، هذا إذا كان من مرتبة البكوات. وكان للفرحة ضريبة خاصّة يُؤدّيها المرء، حسب استطاعته. ومع مرور الأيّام تقلّصت التقاليد، واختصر الأسبوع بليلة واحدة، علفة دسمة، وفسحة أمل، تشرَّع فيها الأبواب والصدور، وتُباح المحرّمات...

فرحة فريد بك!

والبك لا يفرح كلّ يوم.

جلس بو دعّاس في صدر المائدة، وعينه على باب الدار.

تأخّر مخّول؛ ليته مرّ به قبل حضوره، كان قد أوصاه صباح ذلك اليوم بأن يُبكّر في المجيء... ولَحسنَ ابتسامة تسرَّبَت إلى شفتَيه وهو يجترّ فكرة: «الصبي يُسوّي شبابه ليظهر في العرس كما يليق بعريس».

وكان بو دعّاس قد أنفق معظم ساعات ذلك النهار في إعداد الخطّة للقيام بخطف ريّا: «ابن الحلال عند ذكره يبان».

أطلقها الرجل وهو يرفع كأس العرق بيمينه ويدعو الشباب ليشربوا نخب مخّول.

وتموَّجَت «هيصة» الشباب وهم يُرحّبون بعريس الغد، ويرشقونه بتعليقات تترجَّح بين الجدّ والسخرية...

«أهلًا بشيخ الشباب.»

«يا خيّي مين صارلو عزّ مخّول.»

«وقت فرحتك يا مخّول.»

وراقَتهُ التحيّات، فارتمى فوق كرسيّه، ورفع الكأس يردّ على تحيّاتهم وهو يلجم لسانه كي لا يُفرّط بالسرّ.

وجه ريّا وحده لم يُشرق في تلك الأمسية... وكانت هناك عينان ترقبان الباب بخوف وهلع. كان ناجي يقف بين الصبية المعسكرين فوق أسوار الحديقة يراقبون الاحتفال، ويشتركون فيه برفيف الأهداب.

وناجي لم يحضر للفرجة؛ كان يخشى أن تنقض ريّا وعدها له، فتعود إلى الظهور بين الجماعة... وازداد هلعه حين أبصر مخّول، ثمّ تحوّل الخوف إلى غضب جامح وهو يسمع العبارات الساخرة تتناول صديقته الغالية، فتطحن عظمه، وتزيد انكسار قلبه.

وكانت ريّا قد تظاهرَت بالعبث وهي تصغي إلى كلامه وإرشاداته الساذجة... ولم تُجب بحرف.

وعندما عادَت إلى بيتها، ظلّت تُصارع فكرة واحدة سيطرَت على كيانها: هل تذهب وتقلق سكينتهم، أم تبقى في المنزل وتستريح؟

تذكّرت التوسُّلات الطيّبة في عيني ناجي؛ ومن أجله وحده، أوصدَت بابها وأوَت إلى الفراش قبل حلول الظلام.

كانت القرية هادئة، والطريق خاليةً من المارّة، وضوء القمر يستريح فوق السطوح وأغصان الشجر، يزيد الصمت توكيدًا ويُنير للأرملة طريق العودة.

وكانت ألماس تمعن في السير والهرب من الأصوات المتناقضة، المتلاحقة في ضميرها... الأهازيج... زغردة النساء... ثرثرة الألسُن، وعدها لبو دعّاس... رحمة اللّه وسخطه... وجه ابنتها الطفلة، خدّاها المورّدان والآمال التي غرسَتها في عينيها، وبيدَيها... آمال أعزّ من نور عينيها، وبيديها ستُطفئ النور؟ وضوء

القمر ما الذي يقوى على حجبه؟ الغيوم؟ نعم، الغيوم السوداء تمتصّ نور القمر، والليلة إحدى ليالي الصيف ولا غيوم في سماء القرية، ولكنّ السُحُب الداكنة السوداء تتكاثف في سمائها وتحجب عن عينيها كلّ ضياء... وتطرحها في بئر الأفاعي.

ماذا يُخلّصها من هذه الحبال السامّة؟ إنّها تلفُّ قلبها وتضغط أنفاسها وتقرص شفتَيها.

حين تكون وحدها، فقط، حين تكون منفردة، يعود وجه الطفلة الضاحكة يشرق في عينيها، فتندم على كلّ الوعود والأقوال، وتؤنّب نفسها على طاعة بو دعّاس... ولا يلبث أن يهتزّ صوت في صدرها: «ولكنّ الرجل يريد لنا الخير، وإلّا فما الذي يدفعه إلى هذا العناء؟».

ويزأَر صوت آخر: «ابنتك هذه، فلذة كبدك».

«بنتي يا حشاشة روحي.»

وتطغى أصوات الناس: «فضيحة... هالبنت فضيحة».

وتُتمتم شفتاها: «ليتها لم تولد».

ويعود الصوت: «ولكن، ماذا فعلت؟ إنّها طفلة... طفلة... طفلة».

وتمدّ الأرملة ذراعيها بلا وعي وتسارع خطواتها: «بنتي وحدها، تركتها وحدها في البيت... طفلتي... تبكي، إنّها جائعة، جائعة... لم أُرضعها، قضَيتُ النهار أخدمم الناس... بنتي».

ويوقظها من أحلامها وقع قدمَين، فيتنحنح بو دعّاس قبل أن يلفظ تحيّته: «يمسّيكِ بالخير يا ألماس».

سلك مكهرب أرعد فرائصها، أعادها إلى الواقع... تطلَّعَت في وجهه، ولم تقل شيئًا.

– راجعة بكّير، بعد السهرة ما خلصت.

– بس أنا خلَّصت شغلي، وتعبانة... قلت: بنام بكّير.

– خير ما عملت... شو، بعدنا عالقول؟ هالشاب ما عاد صابر.

بماذا تُجيب؟ تستحضر الأرواح التي رافقَتها قبل لحظات؟ الأرواح تفرَّقَت حين سمعت صوت الإنس... سترفض: «ارفضي... احملي ابنتك واهربي من هنا».

– إلى أين؟...
– الدنيا واسعة... دنيا اللّه واسعة.
– وأنا امرأة عاجزة، وهذا الرجل يريد لنا الخير.
– الرأي لك يا بو دعّاس... مثل ما بتريد.
– إذن بكرة... قرب الغروب... عند «كرم الرقبة».

تابعَت سيرها ولم تودّعه؛ أحسَّت الحبال تزيد ضغطها على عنقها، وتضاعف نشاط الأفاعي... راحَت ترقص، تقف على أذنابها، وترفع رؤوسها إلى فوق، وتقترب الرؤوس من فم الأرملة، تحاول تقبيلها، فتمعن في الهرب... ولكن إلى أين؟ كوخها صامت، ومضجعها شوك.

اقتربَت من فراش ريّا تصغي إلى أنفاسها، وتتمنّى لو تستطيع أن تنام بذلك الهدوء... ثمّ انحنَت تحاول تقبيلها فلم تجرؤ...

تصوَّرَت ابنتها ميتة، وهذه آخر ليلة تقضيها في الكوخ بجوارها، وغدًا سيأتون لنقلها ودفنها، ولن تستطيع أن تردّ الرجال؛ سيحملون الجسم الغضّ، يطووونه بالأكفان ويخفونه تحت الأرض، ولن تجرؤ على رفع الصوت أو الاحتجاج... لن تقترب منها لتقبّلها قبلة الوداع، بل سوف تقف عند الباب، تلوّح بالمنديل بصمت، وحين يتوارون عن بصرها تزعق وتنبش شعرها وتمزّق ثيابها.

وحينئذٍ لن يكون هناك مَن يسمعها أو يهرع إليها، لن تسمع كلمة عزاء؛ الصوت القويّ وحده سيظلّ يرافق خطواتها في دروب الشيخوخة والوحدة ولِيالي الشتاء الباردة: «أنتِ حفرتِ لها الحفرة، فضَّلت عليها الغرباء... لستِ أُمًّا... لا».

(ألا يفارقني هذا الكابوس؟)

سجدَت عند قدمي ريّا ومدَّت يدها تتحسّس الغطاء، ولا تجرؤ أن تصل إلى الجسم، ثمّ دفنَت وجهها عند طرف الفراش وبكَت بدموع خرساء.

فجأة أحسَّت بانفراج؛ لن تذهب في الصباح إلى الموعد، وليشنق بو دعّاس نفسه، لن تتركهم يسلخون عنها فلذة الكبد... رباطها الوحيد بالحياة. سوف تحملها وتطير بها، تقطعان القفار والبراري، وفي مكان ما من العالم، لا بدّ من أن تجدا زاوية تعيشان فيها، ولا تصل إليهما الأنياب الشرسة.

انسلَّ الفجر إلى الكوخ، إلى فراش بارد هجرته أنفاس الشباب؛ وكان مرقد ريّا أوّل ما أبصرَته عينا الأرملة، فانخلع قلبها، ثمّ تدفَّقَت أفكار الأمس كالأمواج الطاغية، وعادَت الصور تتقلّب في ضميرها، والأصوات تزعق في أذنيها.

فركَت عينيها: هل هو حلم؟ لا...

واختصرَت رعبها وقلقها في صرخة واحدة: «يا ريّا!...».

ومات صوتها في حنايا الكوخ، وبقي كلّ شيء على حاله؛ ومن طرف القرية تهادى إلى سمعها نباح كلب.

«يا ريّا...»

قامَت تبحث عنها في كلّ زاوية، تعثَّرَت بالكرسيّ فوقعَت، ثمّ نهضَت ترجّع الصراخ: «ريّا».

لم تدرِ ماذا تفعل... لم تكن مستعدّة لتواجه الواقع.

وتذكَّرت جارها وخطّته المرسومة، فشعرَت بشيء من الراحة لهرب الفتاة.

ثمّ عادَت الغيوم تعبق في صدرها: أتراها درَت بما يُحاك لها فهربَت؟

ولكن، إلى أين؟ وليس لها في الدنيا أصدقاء، سوى ذلك المغضوب عليه: ناجي... وهذا، ماذا يستطيع أن يفعل؟

«يا ريّا...»

ارتعدَت وهي تفكّر في احتمال واحد: هل ترمي ريّا نفسها في البئر؟

هوّة عظيمة، عميقة، في طرف البساتين... ابتلعَت كثيرًا من الأغنام. ذات مرّة سقط فيها رضوان، أحد الرعاة؛ كان ذلك من زمان... وباتَت الحادثة أقرب إلى الأسطورة، وظلَّت البئر تفغر فاها بنَهَم.

وعادَت الأحلام كابوسًا يضغط قلبها، تذكَّرَت صورة عبرَت خيالها ليلة أمس: صورة طفلتها ميتة.

أهو قلب الأُمّ أنبأَها بما سيحدث فعلًا؟

ركضَت إلى الملجأ الوحيد... بيت جارها بو دعّاس.

كانت أُمّ دعّاس قد نهضَت باكرًا تعدّ قهوة الصباح لزوجها، ففتحَت لها الباب:

– خير إن شاء اللّه يا ألماس؟

– ما في إلّا الخير... فاق بو دعّاس؟

ولم تنتظر الجواب... وقف أمامها، وابتسامة التفاؤل تثير تقاطيع وجهه: – تفضّلي جارتنا، ارتاحي... ثمّ تابع همسًا: بيظهر جارتنا ما عاد لها طولة بال!

كلامه نصال تدمي قلبها... تخزها في أدقّ حواسّها، فتعضّ الجراح، وتمتصّ الدماء النازفة، تبتلعها وتصمت، ثمّ تنظر إليه باستسلام، تخشى أن تُعرّي كلّ مشاعرها أمامه... حاميها.

وتفرك كفّيها، وعيناها إلى الأرض:

– البنت يا بو دعّاس... البنت... دخلك شو بدّي أعمل؟

– شو بها البنت؟ خير؟

انقلبَت سخريته إلى جدّ غير مفتعل، وسرَت رعشة باردة في أوصاله؛ قد لا يصل إلى تحقيق آماله، فتجري الأمور كما لا يشتهي.

– ريّا اختفت يا بو دعّاس، شو هالمصيبة؟! ما كانت بالحساب.

الكلام أقلّ وسائل التعبير... يداها تلطمان خدّيها وتنبشان الشعر، وتدقّان جدار الصدر الناحل باحثتين عن جواب، والدموع تنهمر غزيرة من عينيها، من منخريها... ويختلط النشيج بالهمهمة... بحمّى الألم.

تجمَّعَت الأرملة على نفسها، واقتربَت من بو دعّاس وقد جفَّفَت السواقي.

– قولك سمعت اللي حكيناه وهربت؟

عبارة معترضة، همسَتها بعيدًا عن سمع زوجته... محاولة واهنة للتكمُّش بأذيال كرامة لا تسمح بهدرها كلّها على عتبة الجيران.

أمسك بو دعّاس طرفَي «القمباز» بحركة آليّة وشكلهما بحزام الخصر، وقد تسرَّبَت إلى وجهه بقع الهمّ، وانتشر القلق في عروقه كالرعدة.

وعاد يستدرك، قبل أن تخونه حواسّه: (ما لك يا رجل؟ تُخيفك صعلوكة؟) وهبها سمعت؟ أليس في استطاعته أن يمحو كلّ شيء بزعقة صوت... وإذا اضطرّ، يصفعها؛ إنّه يمون، أجل، حق الجوار.

وهو لم يقُم وحده في تدبير الأمور... أُمّها السبب؛ لم يكن ليتدخّل لولا غيرته على الأرملة، وإشفاقه على بؤسها وعجزها... وريّا يتيمة، أيقظَت في صدره عاطفة الأُبوّة، عاطفة بريئة، فكيف سمح للأفعى الصغيرة أن تشوّهها وتحرّك تأنيب الضمير؟

لا، لن يهتمّ... لن تصطكّ ركبتاه، هو غير مذنب.

(إنّك بريء يا رجل، ما لك؟ أين القوّة والسطوة يا بو دعّاس؟)

وعينا الأرملة عالقتان في وجهه، تنتظران... ظنَّت أنّه يخلو بنفسه لحظة ليفكّر في طريقة لنجدتها؛ من حقّه أن يصمُت، هذه حاله كلّما اعترضَته عقبة.

– أنا بريء.

تمتمَها بلا وعي... خرجَت من حدود الشفتين، وفغرَت الأرملة فاها ببلاهة: – ها؟!

تراجع... شدّ الكلمة إلى حلقه... لتخنقه؛ وانتظرَت الأرملة، وظلّ صامتًا... فبادرَته: – إي، شو قلت خيّي بو دعّاس؟

هو لم يقل شيئًا؛ عليه أن يبحث عن أيّ عبارة معترضة يسدّ بها الثغرة التي انفتحَت فوق رأسه: – اللّه كبير يا جارة... اللّه كبير.

وهي تعترف بأنّ اللّه كبير، وليست في حاجة إلى تذكير. ماذا دهى الرجل؟ هل يتركها في ساعة الحشرة؟

أدارَت لسانها بين جدران حلق بات حطبة يابسة في صحراء رمال... وتذكَّرَت فنجان القهوة أمامها، فشربَته دفعة واحدة، ومسحَت يديها المرتبكتَين بجانبي ثوبها الكالح.

وكأنّ فكرة جديدة أشرقَت فجأة في ذهن الجار، فانتفض واقفًا وطلب منها أن ترافقه إلى بيت محّول.

بئر الموت على بُعد ضربة حجر من بيتها، ويمكن الوصول إليها في لحظات، ولكنّ ريّا سلكَت طريقًا آخر في سبيل تنفيذ غايتها: الهلاك.

إذا طرحَت نفسها في البئر، فماذا يحدث؟

تحزن ألماس، وتشمت الجارات، وتعيش القرية أيّامًا معدودة خارج الرتابة، ثمّ تعود إلى ممارسة البقاء بهدوء.

لم يكن ذلك أقصى أمنيات ريّا... كانت تسعى إلى النقمة وقطع الأمراس النحاسيّة التي تشدّ روحها وقلبها إلى التراب، إلى الذلّ والخضوع.

قرّرَت أن تنتقم من أُمّها ومخّول وبو دعّاس وأهالي القرية؛ قوّة غريبة تتحرّك في صدرها، تنهار كالجبال وتهدر كالشلّال: النقمة... النقمة...

ويهمس صوت في أذنها: «من هنا طريق الهلاك...».

وشوشة الذات أم همس الشيطان! أجل، الشيطان يتحرّك في داخلها، يضبط وقع خطواتها: «من هنا الطريق إلى بيته، ويكون هو نائمًا؛ من عادته أن ينام نومه العميق قبيل الفجر».

(سأجعله يذكر فجر هذا اليوم حتّى نهاية حياته.)

وعيون الآخرين تنام من حولها في المساكن الصغيرة، تنعم بالأحلام ودفء الأطفال... ويخرج اللهاث من الكوى الضيّقة، فيختلط بأنفاسها المتلاحقة (مهما حاولْتُ الخلاص أبقَ منهم؛ وهذه لعنتي).

ضربات القلب تزداد عنفًا وضراوة، ويسري صقيع الفجر في أطرافها: «من هنا الطريق إلى بيته». من قبل لم تكن تأبه لهذه الجدران الرماديّة الباهتة... ولا تبدّلت قبل اليوم ضربات القلب وهي تمرّ بها؛ والقلب يعزف أنغامًا عديدة، ودقّاته في ذلك الصباح لم تكن متدفّقة من ينبوع الحبّ.

والغد! ما لها وللغد؟ لم يكن في نظرها أكثر من انبثاق فجر آخر، وعودة النهار إلى جورة السنديان يكشف عوراتها، ليخرج السكّان من مخابئهم فينثروا سخطهم ونقمتهم وجشعهم في الأزقّة.

وفي الليل تتنفّس الطريق أنفاس الراحة والخلاص، وتنسى أنّ الأقدام ستعاود إقلاقها مع الصباح.

«من هنا... وصلنا.»

الشيطان يوالي همسه بعذوبة، وتحنو يده تربّت كتفها؛ كانت تعرف وجهه من أيقونة في كنيسة القرية... وجه إنسان، فوق جسم أفعى، تنفُث اللهب... والذي يرافق خطواتها هذا الصباح أقرب إلى صورة حبيب؛ يشبه الفارس الذي استوطن أحلامها مذ بدأَت الأحلام.

أدارَت طرفها في أرجاء الحيّ، ووقفَت تسترق السمع؛ صمت مطبق (ولماذا لا يستمرّ هذا الصمت إلى الأبد؟...).

لو ألقَت نفسها في البئر لوصلَت إلى هذه النعمة... الصمت والراحة الأبديّة، ولكنّها لم تعد تتحكّم بمصيرها؛ الحبيب يرافقها، تحسُّ بحرارة لهاثه فوق عنقها، يده تسندها، ترفعها لتتسلّق السقيفة. كانت تعلم أنّ مخّول ينام فوق تلك السقيفة طوال أشهر الصيف، وهذه المعرفة لا تتطلّب جهدًا؛ فلا مكان للأسرار في القرية، الواحد يعرف عن الآخر كلّ شيء حتّى الجانب الذي ينام عليه، وعدد المرّات التي يُعاشر فيها زوجته.

«مخّول.»

أجفلها صوتها... مخّول... الاسم يملأ فمها، ويزيد خفقان القلب.

لتهرب قبل أن يفتح عينيه؛ ولكنّ الوقت فات، والشيطان يحرس الممرّ.

«مخّول.»

مدَّت يدها تزيح الغطاء عن وجهه، فتح عينيه ثمّ أطبقهما؛ كادَت تنفجر ضاحكة، شكله مضحك؛ اعتقد أنّه يحلم وعاد إلى متابعة الحلم... وريّا تعلم أنّها أعذب أحلامه.

«مخّول.»

صوتها أم فحيح أفعى؟ أهو امتداد لفحيح الأفعى عند جذع التفّاحة؟

انتفض كالملدوغ:

– ريّا... ريّا، شو صار؟
– عاوزتك يا مخّول... إمشِ معي.
ولم تترك له مجالًا للاستفهام؛ عادَت من حيث أتَت، وضاعَت من حولها الأنفاس الحارّة، ليحلّ صقيع اخترق الجلد إلى العظام.
توارى الشيطان بعدما اطمأنّ على مصيرها.
بعد لحظات كان مخّول إلى جانبها، يفرك عمش عينيه ويستجمع أنفاسه: – أخبريني... ما جرى؟
– نهرب معًا يا مخّول.
– نهرب... ممَّن؟
– أنتَ وأنا... خطيفة، هل فهمت؟
– أنتِ غير واعية يا ريّا، هذا جنون.
– لا يا مخّول، ما كنتُ في حياتي بهذا الوعي... إمشِ.
قضت ريّا ساعات الليلة السابقة في إعداد الخطّة للهرب؛ أحسَّت أنّ أُمّها تدبّر أمرًا غامضًا بإرشاد بو دعّاس، وكان عليها أن تسبقهما، لتفلت من القبضة الحديديّة... ولم يكن أمامها سوى الهرب.
التمرُّد يولد كالعاصفة، يهبط من الأعالي، ينقضّ على الإنسان كالصاعقة، تلده سنوات الضيق والظلم وحصر الأنفاس في قفص الصدر.
والليلة السابقة، جمعَت ريّا تمرُّد سنواتها الغضّة في قبضة يدها، وأفلَتَتها خيوطًا من السحر، وتركَتها تشدُّها، تتحكّم بتصرّفاتها، تقرّر لها المصير.
سار مخّول بقربها مطبق الشفتين، راضخًا لقوّة خارقة تشدّه إلى الفتاة... تحوّله بين يديها إلى كلب بلا أنياب... آدم الجديد الهارب من الجنّة متعلّقًا بأذيال امرأة.
وظلَّت ريّا صامتة، مجدّة في سيرها إلى جانبه.
إلى أين؟
دعاها لتستريح، وفكّر في أنّه سيتمكّن من إقناعها، فيعودان إلى القرية قبل انفجار الفضيحة... كان طيف بو دعّاس يزوغ في عينيه، يهزأ منه ويُقهقه، وانتفض جزعًا: – ريّا... هذا جنون... تعالي نرجع... شو رح تقول الناس؟
– اترك الناس يا مخّول وفكّر فيّ أنا... فينا نحن الاثنين... أنتَ تحبّني، وأنا...

– تُحبّينني... قولي الكلمة.

– تعال نتابع المسير.

قدماها تسابقان الريح، وخيوط الشمس تطلّ على الوجود... خطاها تقلق القفار والبراري الصامتة... العالم الخرب خارج الجنّة راح يشرِّع لها أبوابه، وكلّما أمعَنت في المسير، ازداد بعادها، وأحسَّت الحبال تتقطّع، ويقفز قلبها حرًّا... وهو إلى جانبها... هو خلفها، يجدّ في أثرها وعيناه عالقتان في التراب عند موطئ قدميها.

لتقم القيامة... ليذهب الآخرون إلى الجحيم، ريّا على حقّ؛ لقد حصل عليها، وهذا أقصى ما تمنّاه... وكلّ الفرق أنّ الرياح غيَّرت اتجاهها، وبدل أن تهبّ من ناحية بو دعّاس، جاءَت من صوب ريّا... ولم يتبدّل في وضعه شيء، ظلّ الورقة الراعشة، تتقاذفها الأنواء، بلا وعي منها ولا إرادة.

«طُرّه» قرية صغيرة، تبعد عن جورة السنديان مسيرة ساعتين... وعندها تختتم هواجسه... يرفع الكاهن يده فوق رأسيهما، ويُبارك الزواج الميمون، ثمّ يتبع ذلك بموعظة، يدعوه فيها ليحبّ زوجته كنفسه؛ وهو لا يحتاج إلى توصية، سوف يحبّها أكثر من نفسه، سيُطعمها لحم كتفَيه.

«أسمعتِ يا ريّا؟... لحم كتفي ليس كثيرًا... امنحيني رضاكِ فقط.»

ثمّ كرَّت الصوَر في رأسه، صوَر راقصة مرحة؛ سيبني معها أسعد أُسرة، ويرزقان البنين، أشهى ثمار الوجود...

«سوف أُعوِّضك عن كلّ تعاستك ويتمك وشقائك... وتبقين إلى جانبي عزيزة كريمة... أميرة بين نساء القرية... أتسمعين؟»

ولم تكن تسمع، كانت قد توارَت خلف ستار ضبابيّ، وانتقلَت إلى عالم آخر طالما عشقَتهُ: الطبيعة البكر والآفاق البعيدة.

لكَم هي بعيدة تلك الآفاق! وها هي ترفع مداميك جديدة في بناء سجنها.

أجل، لماذا خلقت هذا القيد تجرُّه خلفها؟ كيف لم تهرب وحدها؟ (ليتني أستطيع أن أتراجع وأفلُت منه، أتفلّت من الجاذبيّة التي تسمِّر قدميَّ بالأرض، لأمتزج بذرّات التراب وأغيب)، وعادَت المسافة تتّسع والصمت يرزح فوق صدرها، يزيده ثقلًا ويقطع حبال الوصول.

– أتقبلين مخّول زوجًا لك؟

– نعم.
– وأنتَ، يا مخّول، هل ترضى بريّا زوجة لك؟
– نعم.
– هل غصبكِ أحد يا بنتي؟
كادَت تنفجر ضاحكة (هل غصبني أحد؟ وهل أعلم ما أفعل الآن؟ ضرب من الجنون ينتهي على يديك يا محترم): – كلّا.
– وأنتَ با بنيّ، اخترتَ الفتاة برضاك وقبولك؟
– أجل.
مختصرة كانت بركة الزواج، وانتهى «بونا جريس» من المراسم خلال دقائق؛ زواج بلا كلفة، ولم يهتم لارتداء بذلته الرسميّة، فظلّ بثيابه المنزليّة. ولم يحضر الزواج سوى رجل وامرأة من الجيران، شاهدَي الإكليل، والرسول الذي أحضر ورقة «الحلّة».
وقامَت الخوريّة بدور والدة العريس، فأعدَّت للجميع قهوة مطيّبة بحبّ الهال، وبعض الحلوى الشعبيّة... وجلس الجميع يشربون ويتحلّون على شرف العروسين، وكان الكاهن في غاية الرضى والحبور، فهو شديد الاهتمام بالناس، متّصل بجذور علاقاتهم، بأفراحهم وأحزانهم... وكان يحزن كثيرًا حين يستردّ اللّه أحد رعاياه، ويتمنّى لو تُلقى مهمّة الصلاة عن نفس المرحوم على أحد إخوانه من كهنة القرى المجاورة؛ أمّا الزواج، فأمره يختلف.
كانت هوايته جمع الشباب ببركة اللّه ورضاه، وتسهيل اللقاء بين المحبّين. وقد ذاع صيته في المنطقة، فبات مقصد فتيانها من كلّ صوب، يوكلون إليه أمر تدبير العروس. وكان يتفاءل كلّما بارك زواجًا جديدًا، ويعدّ العمليّة طالع فأل عليه وعلى سائر أبناء الرعيّة.
وبعد الإكليل دعا العروسين ليشاركاه فرحة نهاره، وراح يمطرهما بالأسئلة والنصائح... ولم يخفَ عليه الفارق الكبير بين مخّول المسالم الوادع، وريّا، الثورة المجسّمة في امرأة. وحين سألها، على سبيل المداعبة، أن تروي له قصّة هربها مع مخّول ابتكَرَت أغرب حكاية؛ أوهمَته أنّها غارقة في حبّ الشاب، فارسها الجميل، ولكنّ أهلها عاكسوا فكرة الزواج، وهي ترى أنّ ما جمعه اللّه، لا يمكن أن يُفرّقه إنسان.

– بارك اللّه فيكِ أيّتها الفيلسوفة الصغيرة... امضي مع رجلك على بركة اللّه... وليرزقكما ثمرة البطن.

– بدعاك يا بونا.

وكان مخّول الغريب الوحيد عن الحوار... لم يكن قد أفاق من حلمه وذهوله، لم يفهم ما يعني كلام ريّا وتصرّفاتها...

ريّا! هل هي حقًّا زوجته بعد اليوم؟

«في تمّوز يغلي الماء في الكوز.»

كلمات عتيقة مهترئة من كثرة الاستعمال، ومع ذلك، كانت تنطبق على ذلك الصباح.

صباح ثقيل، تشرق شمسه باكرًا؛ تُشرق على الكروم وأشجار الزيتون والدروب الضيّقة، وعلى جوّ مشبَّع بذرّات الغبار.

وتنسلخ شعاعات لاهبة من الجوّ، وتترنّح على الأرض، فوق الأجسام الفتيّة العاملة في الحقول، فيندلق ثوب عن صدر صبيّة حريصة على بياض جلدها، وينضح العرق من زنود الفتيان السُمر، ويتحوّل التراب فوق الدروب إلى رماد تُذرّيه نسمات واهنة خرساء: تمّوز.

يمضغ الاسم فم عجوز، جفّ الماء في حلقها، فراحَت تبحث عن ظلّ دالية تتكوّم تحتها، أو تختلس منها حبّة ناضجة ترطّب بها جفاف الحلق.

اختفَت برودة الصباح وانسدل ستار ثقيل فوق السطوح والأغصان، فلم تعد تهتزّ ورقة فوق شجرة.

مستنقع لهب، وخلف حدود القرية مستنقع آخر، بركة الرعاة؛ مياهها تتجمّع من مطر الشتاء، يغذّيها ينبوع شحيح، ويقصدها الرعاة مع مواشيهم قبيل الظهر للشرب والقيلولة.

كانت البركة هادئة، توزّع حول أطرافها سرب من العصافير، وانحنَت فوقها شجرة السنديان الوحيدة في ذلك السهل، وقد بدَت متهدّلة الأغصان، كئيبة، لا تبالي بوجوده.

حمل ناجي سلّته الفارغة منذ طلوع الفجر واتّجه صوب الكروم، كان يأمل أن يلتقيها في الطريق قاصدة الطبيعة هي أيضًا؛ وأعجبه مشهد البركة، فألقى

السلّة بجانبه وأسند ظهره إلى جذع السنديانة، ثمّ راح يطرح الحصى في البركة، أو يرشق بها العصافير ببلادة، وبلا قصد.

عبثًا طال انتظاره وبحثه عنها عند مطلّ السهل، ولم يكن يدري أنّ ريّا كانت تطرح الحصاة في بركة القرية، ولكن عن قصد وسابق تخطيط... وراحَت حلقات الأمواج تكبر وتتّسع، تطرق باب كلّ مسكن، وتوقظ كلّ عائلة... انتشر الخبر مع صياح الديكة: «خطيفة».

أفاقَت خليّة النحل، شرَّعَت الأبواب، واندلقَت ألسُن النوافذ: «خطيفة مين؟»

«مين قولك؟ في غيرها؟»

«لو ماتت ما كان أشرف؟... بيقولو: لشو الرجال؟ لساعات من هالشكل.»

«ياختي... عيشي كتير بتشوفي كتير... بنات هالأيّام.»

«لا... لا تقولي البنات... هو بناتي، مين بيشيل الغبار عن صراميهن.»

«الحقّ على إمّها... تروح تنضبّ، مسيّبتها بلا مربى.»

«لو كان في رجال، كانوا ذبحوها من زمان، وما وصلت لهون.»

«المهمّ يتجوّزها... ما يضحك عليها.»

«قولك مش دبّار هالبوشوارب، بو دعّاس؟»...

قطع بو دعّاس المسافة القصيرة بين داره ودار مخّول ساهمًا يفكّر... وبعث الفجر إلى نفسه شيئًا من الطمأنينة والأمل... الفجر، مفرّج كلّ همّ. توجّه إلى السقيفة، فطالعه الفراش الخالي؛ وغرقَت حواسّه كلّها، شعر بأنّه يقف على باب هوّة وثمّة قوّة غريبة تشدّه بقدميه ليسقط.

– هذا مستحيل!

اللعين... يعرفه جيّدًا! الكلب، لا يجرؤ على تحريك ذنبه من دون استشارته؛ لقد طغَت عليه الأفعى، نفثَت سمّها في وجهه فداخ وتراخى، خدَّرَته وجرَّته خلفها. وهذه البومة وراءه... ليتَها تصمُت، فلتذهب إلى الجحيم هي وابنتها... لتنصرف عنه، كفاه ما تحمّل منها، كفاه.

– اسكتي يا مَرا... خلّينا نفكّر.

– شو قلت يا بو دعّاس؟

ألا تسمع؟ ألا تدري ما جرى؟ ألا ترى كيف استولَت الأفعى على الخطّة وهدَّمَت جدرانًا بناها بالعناء؟

– ارجعي يا ألماس... روحي عا بيتك... واتركي الأمر بيد اللّه.

ماذا يقول؟ لا تفقه حرفًا، ينسحب في اللحظة الحاسمة؟

عيناها فارغتان، وفمها مقوّس ببلاهة.

– البنت هربَت مع مخّول... طمّني بالك وارجعي عالبيت.

ماء ساخن... ماء بارد... رعشات برد، وحمّى تسلق عظامها، وقدر قويّ يهبط عليها من فوق، وهي زائغة في عالم لا تدري عنه شيئًا... هي جسم لفظَته الأيّام بعدما أشبعَته مضغًا وهرسًا، فبات شبحًا يتلفلف بثوب كالح، ويتعلّق بحذاء يجرُّه إلى الهاوية.

ليت القبر ينفتح ويضمّ عظامها؛ تاقَت إلى معانقة الثرى، شوق يشدُّها للعودة إلى الأرض، شهوة الموت تعصف بها... شهوتها الوحيدة.

– أتسمعني يا ربّ؟ خُذني إليك... بجاه كلّ القدّيسين.

والطريق متعرّج، والزقاق ضيّق يتلوّى، فيطحن عظامها؛ طريق رسمَت فوقه حوافر الدوابّ أشكالًا متحجّرة، وعقَّدَت مسلكه الحجارة وأكوام الزبل.

عمشَت عيناها، وراحَت الدموع تنهمر من طرف منخرَيها، والسحابة السوداء تعمي بصرها، والثقل يرزح فوق كتفَيها، يشدّها فتهوي شفتاها تقبّلان التراب.

باب الكوخ مفتوح، ولجَت منه وأغلقَته خلفها، ثمّ ارتمَت بين الجدران تتمنّاها لو تتقارب على وجودها... تصبح دفات نعشها.

ألم الفضيحة أقسى من الموت.

كان أهل مخّول آخر مَن وصلهم الخبر؛ لم يُغادر بو دعّاس الساحة، ظلّ مكانه، ثمّ تشجّع فطرق الباب.

امرأة تفتح له...

أمّ مخّول، تحزم شعرها بالمنديل، قبل أن تواجهه:

– خير إن شاء اللّه، يا بو دعّاس؟

– ما في إلّا الخير... وَين الشيخ؟

– بو مخّول؟... هون، تفضّل... بوجهك حَكي.

– إيه واللّه... والمسألة بَدها طولِة بال، ياختي أم مخول.

يتكلّم بالألغاز... ليته يُفصِح.

وقف الرجل والمرأة ينظران إلى وجهه بذهول... واصطفّ الأولاد حولهم.

– روحوا شوفوا شغلكم يا ولاد.

صوته الراعش لن يفرّقهم... هم يريدون أن يعرفوا... لا أسرار في العائلة، ولا بين أبناء القرية.

– المسألة بسيطة... مخّول وريّا...

ماذا؟

لا، لم يُخبرهم مخّول بشيء، علموا ما جرى في العرس، من ألسُن الناس... ولم يكن الأمر يمسُّهم... ابنهم شاب... والفضيحة تقع على رأس البنت.

وليلة أمس كان كلّ شيء طبيعيًّا... ونام مخّول فوق السقيفة.

خطيفة؟ لماذا؟

ما كانوا ليُمانعوا بزواجه ريّا «زؤان بلدك ولا قمح الغريب»... والبنت حلوة وصحّتها ممتازة، وأُمّها امرأة مستورة، ما الذي أوجَب الخطف.

– إنتَ عندك علم بالأمر يا خيّي بو دعّاس؟

– واللّه علمي وعلمكم سوا... المهمّ ما تخلّو الناس تحملكم وتقوم.

تطلَّعت المرأة إلى رجلها، فبدا وجهه هادئًا، راضيًا، فابتلعَت عضّة غيرة كانت قد آلمَتها... وصعَّدَت تنهُّدة عميقة: – شو ما كانت البنت، رح تصير بنتنا... مش هيك يا بو مخّول؟

– عقبى لفرحة ولادك يا بو دعّاس.

لم يكن هناك وقت للكلام... أشرقَت الشمس، والحقول تنتظر؛ حقول القمح والسنابل الناضجة.

– يا اللّه يا أولاد شدّوا الهمّة... وين الزوّادة يا مَرا؟ دَهَمنا النهار.

جرَّت قدميها جرًّا.

لو سمح لها بأن تفرح به... لماذا لم يُخبرها؟ بكر أولادها، أقربهم إلى قلبها، (ولو، يا مخّول! نسيت إمَّك؟).

غالبَت دموعًا صامتة اغرورَقَت بها عيناها، ومسحَتها قبل أن تراها عيون الآخرين.

لم تجرؤ على أن تسأل زوجها عمّا تعدّ في ذلك النهار؟

شاءت أم أبَت، عليها أن تفتح الدار وتستقبل العروسين. هي الرابحة، وإن كان هناك مَن يجوز أن يغضب فهو الأرملة، أمّ العروس.

وتمنّت أن يعودا بأسرع وقت، حتّى لا تتحمّل مضايقة الجارات ومضايقة سلفتها بصورة خاصّة.

مضى الرجال إلى الحقل، وبقِيَ العبء الكبير عليها؛ قرّرت أن تخرس الألسُن، فلا تعلّق على ما تسمع، ولا تُجيب عن الأسئلة... وليمُت الآخرون حسدًا.

حملَت الجرّة واتَّجَهت إلى العين، تواجهها نصال العيون، وتلاحقها بسمات مبطّنة بألف معنى، ولم تُبدِ انفعالًا يُشبع نهمهم. ظلَّت تدقّ الأرض بقدميها وكأنّ الأمر لا يعنيها بشيء... وقد تجمّع انفعالها في أصابع يدها حول عنق الجرّة.

طابَت نفس «بونا جريس» في ذلك النهار.

أحسّ خدرًا لذيذًا يتمشّى في مفاصله، يقعده عن الحركة؛ ولكن الواجبات!

نادى الخوريّة وطلب إليها أن تُحضر له الثوب الجديد؛ سوف يخرج لتفقّد أحوال المرضى، وزيارة المصطافين.

ثمّ حاول، بعفويّة مقصودة، أن يُثير عطف الخوريّة على العروسين، فتدعوهما إلى البقاء في ضيافته يومين، ريثما تستقرّ الأمور في جورة السنديان.

خاطرة غريبة ظلَّت تنقر رأسه بشيء من الإزعاج، ويحاول أن يمسحها فتعود أقوى وأعنف.

الفتاة تبدو ذكيّة... ذكيّة إلى درجة الخطورة. والشاب بسيط ساذج، وهي رائعة الحسن، هي نفحة ربيع هبَّت على دربه فكادَت تُنسيه مركزه ووقاره.

هذه الفتاة عاصفة. لا، هي نسمة مشحونة بالعطر والذرّات الحيّة.

حاول ألّا يناقش أفكاره... لم يكن استبقاؤه للعروسين بريء القصد؛ لقد تحرّك التيّار في صدره، تيّار قويّ على ثوبه الأسود، على قداسته.

– كيف حال قدسك يا بونا؟

أمّ رفّول تستقبله على الباب... تقبِّل يديه وأطراف ثوبه.

يسحب يده بسرعة، ويُحسّ أنفاسها نارًا تحرقه.

التيّار يهدر في صدره.

– خزى اللّه الشيطان؛ لم يكن له الوقت ليستدعي صلاة حارّة... صلاة المؤمن، راح يُتمتم كلمات تقليديّة قرب سرير المريض.

عجز «بونا جريس» عن الوصول إلى حبل الإيمان.

ظلّت صلاته كلامًا فارغًا.

(صوتي اليوم نحاس يرنّ.)

لمَن القول؟ لا يستطيع التذكّر. سحابة كثيفة تقطع عليه الوصول، وصوت العجوز يطنّ في أُذنيه: «زيارتك بركة يا بونا... اللّه يخلّيلك الشباب».

الشباب! صحيح... أنجب شابّين هما اليوم موظّفان كبيران في المدينة.

وهو، يا له من إنسان ضعيف (أنا تراب حقير).

وعيناها، بحر وحي وصفاء، عيناها! فيهما تتموّج الأحلام المندحرة، عيناها تتحدّثان، تلتصقان في وجهك، وتصبحان غرستَين نضرتَين فوق يديك.

وعيناها تدعوانه بانكسار إلى مساعدتها! نعم فيهما انكسار بلا مذلّة.

هما الخطيئة تنقر صدره، وتُزلزل جبل إيمانه.

ليته يستطيع أن يتراجع عن دعوته، فيطردها من منزله... لماذا دعاها لتبقى؟

«بونا جريس» إنسان، ولم يكن ثوب الكهنوت ليوقف تحرّك عواطفه. صدره واسع يتقبّل كلّ شيء، وصدره محبّ يعرف كيف يصفح... وعلى هذا الصدر تكتب أسرار القرية كلّها؛ لوحة منيعة من رخام تحفر فوقها قصص تشيّب الأطفال... وحكايات تنيخ الجبال.

لكم صارع أفكاره! كان يُصاب بالجزع في معظم الأحيان، ويخشى أن يقوى عليه ضعفه البشريّ، فيفتح صدره.

وكان الثقل يزداد حتّى ليكاد يشقّق ضلوعه، وينكشف الستار عن لوحة الرخام.

(أنا حامل خطايا العالم. اغفر لي يا سيّدي يسوع. إنّي أحقر من أن أتلفّظ بهذا القول، ولكنّي أُحسّه بصدق وإخلاص... أنا حامل خطايا أبناء القرية، وبناتها، هكذا أفضل.

ترضى عن هذا القول يا سيّدي؟ لا، أنا لست نادمًا ولا تائبًا... إنّه الضعف البشريّ. حتّى أنت، الإنسان فيك، يا سيّدي، كان يضعف.

«أبتِ، أبعِد عنّي هذه الكأس» ووقفتك أمام المجدليّة، ومساندتك مريم شقيقة أليعازر؟ إنّها مشيئتك الإلهيّة أن تظهر الضعف البشريّ للإنسان، حتّى يقدر أن يفرّق بين حقارته وجبروت الخالق. منك أستمدّ قوّتي وإيماني، فلا أخشى الموت، أستمدّ القوّة لأستطيع أن أسحق رأس الأفعى كلّما تململَت

في صدري.) من زمان لم يُناقش نفسه بهذه الصراحة... وأعاده صوت أم رفول إلى جوّ الغرفة. أبصر يدها المعروقة تمتدّ إليه، حاملة نثرة قطن: – صلِّ عليها يا بونا.

(أرأيت يا سيّدي؟ أنا الإنسان المثقل بالخطايا، أُمثّل دور الإله. هذه المرأة تطلب منّي، أنا التراب الحقير، أن أُقدّس زيتها! والقدسيّة فارقَت أنفاسي.) أعاد إليها القطن المقدّس وهو يودّع المريض ويطلب له الراحة.

تردَّدَت ريّا بقبول الدعوة:

– ما بحبّ تقِّل عليكم يا ستنا الخوريّة.

– أهلًا وسهلًا فيك يا بنتي، اعتبريني مثل أمّك... ما عندي بنات، وأنتِ مثل بنتي.

قادَتها إلى غرفة صغيرة شبه مهجورة... غرفة الضيوف عند الحاجة، وفي الأيّام العاديّة بيت المؤونة.

استغرق العمل ساعة، وأمسى في الغرفة سرير أنيق، يتضوّع منه عطر ورق الغار؛ تحوَّلت الغرفة إلى عشّ يليق بعروسين شابّين.

ظلَّت ريّا تتشاغل في ترتيب الأشياء الصغيرة داخل الغرفة، وكأنّ ذلك ملجأ تحتمي به من هواجسها. لقد سارَت الأمور بسرعة فائقة لم تترك لها المجال لتفكِّر.

الباب ينفتح بحذر... مخّول! كادَت تنساه، كادَت تستثنيه من وجودها، وها هو يقترب منها، زوجها أمام اللّه والناس.

(لا، لا تستعجل الأمور يا غالي؛ نحن في دار غريبة، وهذه الغرفة ستضمّنا يومين... وبعد ذلك؟ لكلّ شيء وقت.) – رَح نبيت هون الليلة؟

محاولة بطيئة منه لتحطيم الجليد.

هزَّت رأسها بالإيجاب.

– وأنتِ راضية يا ريّا؟

– نعم... بونا جريس غمرنا بكرمه، ما فينا نوفيه.

(أجل، كيف أفيه أفضاله يا ريّا؟ سنحدِّث عنه أولادنا في المستقبل، نسجّل اسمه في تاريخ العائلة.) لا يزال خائفًا من رفع الصوت بحضورها. كانت العمليّة سهلة جدًّا، تمَّ كلّ شيء بلا عناء منه... إنّه لا يصدّق، ويُحسّ بكثير من الخوف؛

كان يخشى أن تُبدِّد اليقظة ما يُبصره في المنام، وبخطوات حذرة اقترب من السرير... كانت تجلس على حافته وتعبث بأصابع يديها: – ما كان في وقت لأشتري لك خاتم ذهب.

وهذا لم تفكّر فيه... لم تكن تحلم بخاتم ذهب يطوِّق بنصرها، يشدُّها إليه.

– نشتريه بعدين... شو صاير؟

برود، وجفاف؛ صوتها رذاذ جليديّ يتجمّد في جوّ الغرفة... وهو يأبى أن يرى الواقع.

خطوة أخرى ويصبح بقربها، فوق السرير.

لا، لا يقصد أن يبدأ الآن؛ إنّما له الحقّ في أن يُفاتحها بلمسة يد، دعابة بريئة... أو قبلة. يحقّ له أن يُقبّلها الآن، من دون أن تصفعه.

وجرض بريقه، يتذكَّر طعم قبلة مغتصبة في وقت ماضٍ.

وثبَت من بين يديه كالقطّة، متجاهلة قصده، ومن خارج العتبة دعَـته إلى مرافقتها، ليساعدا الخورية في إعداد الغداء.

بلع خيبتَه، وظلّ جامدًا في مكانه يودّعها بنظرات حائرة ويُحاول أن يفتح عينيه على الحقيقة.

هل صحيح أنّ الأمر تمّ هكذا، بلا عناء؟

وحاول أن يستدعي إلى الذاكرة مواقف سمع عنها، مشابهة لموقفه اليوم.

فتاة القرية المحافظة، البعيدة عن الرجل... يصعب عليها هذا التقارب المفاجئ... وريّا قرويّة، ساذجة.

(ريّا طفلة. حاولَت أن تلعب بالنار وهي تجهل طعم الاحتراق؛ قليلًا من التروّي والفهم). كان لا بدّ من إقناع نفسه بهذه الكلمات، ليستطيع اللحاق بها ومسايرة الآخرين.

(تمهّل بي يا ليل... أرخِ سترك رويدًا...

أحشائي تئنُّ من وطء الأقدام القاسية؛ نعالهم القذرة تغرز في صدري، مساميرها محدّدة الرؤوس، وأنا وحدي، أقف هنا، لأدفعها عنّي، أردّ العقاب المكتوب.

مسامير صدئة، أصبحَت نبتات دائمة في صدري، لا أقوى على نزعها، وأعجز عن استدعاء نزعات الخير... لا ذرة طيّبة صدفَت في سبيلي؛ وهو، أصبح

الضحيّة، عليه تنصبّ لعنتي، قدَري أقوى منّي.

تمهّل بي يا ليل، لتنسلّ أناملك بين ثنايا صدري، تُزيل ثقلًا ينيخُ صباي... وتمسح الكابوس الثقيل.) وتهبُّ نسمات متطفّلة من فتحة الوادي، فتمسح وجه العروس، وتُداعب حبّات بلّورية تتدحرج فوق خدّيها؛ لحظات وتجفّ الدموع... هناك أبدًا نافذة، كوّة صغيرة يطلّ منها النور... مهما أدلهمت الظلمة، ويظلّ الإنسان يُصارع باحثًا عن الكوّة.

كانت ريّا تقف أمام النافذة تتمسّك بدفّتَيها، وعيناها زائغتان بين الكروم وأشجار الزيتون... عيناها تسبحان في أجواء بلا حدود، وأفكارها تُرفرف بلا هدف، وكلّما حاولت استدعاءها أمعَنَت في الهرب والتحدّي.

أَوَت باكرًا إلى الغرفة، وتركَت عريسها يُسامر الخوري وضيوفه... انتحلَت الصداع عذرًا، والصداع الحقيقيّ كامِن في جذور القلب.

الزواج أنهى الصراع بالنسبة إلى مخّول، وريّا عدَّت تلك الليلة جولتها الأولى في ساحة المعركة.

تلفَّتَت في أرجاء الغرفة باحثة عن بساط أو حصير، تفرشه على البلاط لتريح فوقه جسمها المنهوك، وأبصرَت حرامًا قديمًا فوق ظهر الخزانة فتناولَته وفرشته في إحدى زوايا الغرفة، ثمّ تمدَّدَت عليه من دون أن تخلع ثوبها.

فوق رؤوس أصابعه اتّجه مخّول نحو السرير؛ كان نور المصباح خافتًا، فلم يعِنه على تمييز الأشياء من الوهلة الأولى، ولمّا اعتاد بصره الظلمة، أحسَّ بالدماء تجمد في عروقه؛ أتراها هربَت منه؟

وسبَقَته عيناه تبحثان في الزوايا حتّى اهتدتا إليها.

(ريّا، يا نور عيني، يا أغلى من حياتي، يا زنبقة.)

قلبه فوّارة عاطفة، وخفقانه يرنّ في آذان الليل.

سجد بجانبها، وقرَّب يده من خدّها يتلمّسه بحنان (لا تخشي مكروهًا يا ريّا... لن ترَي منّي إلّا المحبّة... ولكن لماذا تهربين؟ أهو الخجل؟ إذن كنت تتظاهرين بالجرأة وأنتِ تخشين من مواجهة فأرة؟ والآن، أنتِ زوجتي، بالحلال... زوجتي أمام اللّه والناس، وبونا جريس...) أفكاره سُلَّم يتدحرج عليه، فتتزايد جرأته (أنتِ زوجتي، وحدي لي الحقّ في أن أقترب منكِ).

أنفاسه ألسنة لهيب تحرق أجفانها، فتجفل وتحوّل وجهها صوب الجدار.

– ريّا... ليش ما نمتِ عالتخت؟

جفّلته اللهجة الحياديّة في صوته.

– جاوبيني... ليش فرشتِ على الأرض؟

لن تردّ عليه... يعلم جيّدًا أنّها تسمع كلّ حرف، ولن تُجيبه؛ تعرف كيف تستخدم السلاح، وتستغلّ الفرص... لو اختنق فلن يرفع صوته هنا، في بيت غريب.

لا، ليس الأمر سهلًا كما تصوّره.

علّق قميصه ومعطفه على ظهر الكرسيّ، وخلع سرواله وهو نصف ممدّد في السرير، ثمّ أدار لها ظهره ونام.

استيقظ الجيران مع العصافير، وقصدوا دار «بونا جريس» ليطمئنّوا على العروسين.

شو في خبار من الجورة يا بونا؟

– ما في غير خبار الخير... كلّ شيء ماشي برضى اللّه... تفضلو شاركونا شرب القهوة.

والقهوة يشربها الناس في بيوتهم، أمّا في مثل هذه المناسبات فتطيب نكهتها مع أخبار الآخرين.

– قهوتكِ طيّبة يا خوريّة... اللّه يديمكم.

على ذبذبات أصواتهم استيقظَت ريّا، فسوَّت ثوبها وشعرها وخرجَت تاركة مخّول غارقًا في أحلامه.

خفتَت أصواتهم حين أبصروها، وراحَت العيون تثلم وجهها، تستطلع أخبار الليلة البارحة؛ ووجهها يرتفع بتَحَدٍّ ظاهر، يستقبل شمس الصباح والنسائم الباردة.

«يا هلا بالعروس! والعريس وينو؟»

«العريس متضحّي بالنوم... بيحقلّوا يا عمّي، اللي حاصل على هالجوهرة... صحّ يا بونا؟»

ويتململ صوت الكاهن: «معكم حقّ... العروس ما بتتثمَّن».

وينسدل الستار الشفّاف فوق وجهها، يظلّل بتلات الورود المتفتّحة مع الصباح.

نامَت برغم كلّ شيء، خنقَت تساؤلات القلق وأغفَت فوق الحرام العتيق... ولم تنسَ، قبل أن تغادر الغرفة، أن تُعيده إلى مكانه فوق ظهر الخزانة.

«تفضّلي يا عروس، فنجان قهوة.»

القهوة لها أوّلًا... هي ضيفة الشرف.

«يمكن العروس بتفضّل تشرب القهوة مع العريس... شو رأيك يا بونا؟»

جرأة سمجة مشفوعة بقهقهة غليظة، ذكّرتها بجار السكن في الجورة... وعيناه، ذلك الغريب، تلتهمان وجهها بشراهة، وتتمشّيان فوق جسمها وشعرها.

«ولو! مين غيرها رح يحمل قهوة العريس!»

بونا جريس يتدخّل، ويده تمسح لحيته المخضرمة... وتصعد صوب الشاربين، فتساندة الخوريّة بنظرة موافقة.

طيّبة هذه المرأة، بالها مرتاح، وهي راضية عن الوجود.

ومخّول صاحٍ... علمَت بذلك قبل أن تفتح الباب، من صرير حدائد السرير؛ وظلّ يُدير لها ظهره.

– فنجان قهوة... تفضّل يا مخّول.

تمثّل عليه؟ تتجاهل؟ لن تنطلي حيلتها، سوف يأخذ حذره.

– أهلًا... صباح الخير.

– زعلان منّي يا مخّول؟

– زعلان؟ ولشو بدّي إزعل؟

هو يستطيع أن يُمثّل؛ بدأ يفتح عينيه قبل أن يشمّ رائحة التفّاحة، وامتدَّت سحابة صمت تظلّهما، وسبح كلّ مع أفكاره الهاربة.

وخضّ السكينة صوته بلهجة غير منتظرة:

– اليوم منرجع عالضيعة.

– بسّ يا مخّول...

– أنا صاحب الكلمة؛ حضّري حالك، نمشي قبل الغروب.

لهجة جديدة لم يألفها سمعها، رجولته تستفيق، ويستمدّ من حقّه القوّة، ويتعالى بناء الجدار في وجهها.

هل تنتصر عليه؟

ولكن ليس هذا ما تريد. ماذا تريد؟ لم تكن تعلم؛ طريق خطر... مسالكه شائكة، وهي حافية القدمين.

(كلامك على رأسي، يا تاج رأسي.)

لن ترفع صوتها بكلام كهذا، لن تسخر من زوجها؛ وعلى عيون الناس سوف تظهر له الاحترام... (ولكنّه لن يقربني... الأبله، لماذا جرى خلفي؟ لماذا تعلّق بأذيال ثوبي... الحبّ؟ هذه اللفظة المجدبة، الفارغة، مَن يعرف الحبّ في جورة السنديان؟ مَن يعرفه، خارج الكلام والأغاني الفارغة؟ أحبّوا من قبل، وكانت النتيجة هذا القطيع الخاضع. أحبّوا وأنتجوا أجيالًا تُساق إلى السلخ أو الذبح من دون أن ترفع صوتها. أبي أحبّ أُمّي، وكنتُ أنا، نكرة؛ حشرة قذرة تزحف بين أزقّة جورة السنديان، ولا تستطيع أن تصل إلى حدود القرية، أو تتطلّع صوب الأُفق. وكم تمنّيتُ أن أكون من المخلوقات المجنّحة، لأجتاز ذلك الحرف البعيد، وأُبصر العالم الخارجيّ، لكنّ أبويَّ من الزحّافات، ولم يورثاني الجناحَين.

والحبّ كان لأهالي جورة السنديان الوسيلة الوحيدة للّهو وقتل الضجر، واجتياز ليالي الشتاء العاصفة؛ صوتهم المنتصر على هبوب العواصف. الحبّ، قدَرهم ولعنتهم في آنٍ واحد... يعيشون معه في خليّة واحدة... يتلذّذون به ويتألّمون، يُداعبونه، فيبصقهم خارج الأعتاب حطامًا... هو ملكة قفيرهم، وهم، كلّهم، ذكور النحل.

وأنا، حاولتُ اجتياز باب الخليّة، حاملة قدَري... أقسى قدر.

أنا لا أُحبُّك... أنا ملقّحة ضدّ الحبّ، مُذ أبصرَت عيناي النور. ولن أُحبّ سواك، ولن أكرهك. إنّما وجودك يُثير في نفسي الاشمئزاز، ويحرّك شعور الغثيان... لا تقترب منّي... لا...).

– قلت نرجع قبل الغروب؟ الرأي لك.

أنتَ في نظر الآخرين بناء اشتركت في تشييده بضعة حجارة. الجدار الخارجيّ هو كلّ ما يبدو للعين، أمّا ما يُشاد في الداخل، طبقات الكلس، والأقبية والسراديب، فهذه لا تخترقها الأبصار ولا تصلها العيون.

ومن الخارج، الجدار يحمل بضعة عشر حجرًا... بناء صغير، تنقصه المناعة والتحصين... وطبقات الكلس في داخله، رواسب جُمعَت في لحظات الماضي، تكنسها الريح من الخارج، وتخزنها بإرادة البناء أو لا إرادته... والرياح تحمل، عدا الكلس وحبّات الرمال، ألوانًا شتّى من الجراثيم.

ولا تعي الفتاة ما يحدث... وهبوب الريح يبدأ في فصل السذاجة، وحين تكون الوردة بلا شوك.

في يوم، دخلَت الطفلة إلى دكّان «عمران»؛ كانت يدها تُطبق بحرص على القروش... كم كان لها من العمر؟ لا تذكر، ولكنّها تذكر جيّدًا أنّها كانت طفلة بلا أب وحصلَت على النقود من دار البك.

مدَّت يدها بسذاجة؛ تناول عمران قروشها، لتأخذ مقابلها بضع حبّات ملبّس.

كان الدكّان خالياً إلّا منهما، وكان هو واقفًا خلف الحاجز الخشبيّ، فابتسم ابتسامة لزجة، لم تستطع الأيّام أن تمحوها من ضميرها، ومدّ يده إلى شعرها يُداعب خصلاته، ثمّ رفعها عن الأرض ليوقفها أمامه فوق السطح الخشبيّ: – تحبّيني يا عمّو؟

ما كان جوابها؟ هل ردَّت عليه؟ لا تدري.

كانت عيناها عالقتين بمراطبين زجاجيّة، تطلّ منها حبّات ملوّنة تسيل اللعاب.

– بدّي ملبّس.

يُكشّر عن أسنانه الكبيرة، وتزيد لزاجة الضحكة البلهاء، ثمّ يشدّ وجهها الصغير إليه... يقبّله.

القذر...

رائحته ما زالَت عالقة في خياشيمها، رائحة غبار الأرزّ وحبال القنّب والصابون البلديّ والسماد، وأسنانه كبيرة مزنّرة بحزام أصفر يقزّز النفس.

– بتحبّي عمّو عمران؟

لا تُجيب، تريد الملبّس؛ لا، لا تريد شيئًا. أحسَّت أنّ ما يحدث خطأ، والخطر يُحيط بها، والتكشيرة تتّسع... إنّه الذئب الذي انقضّ على ليلى الصغيرة وهي ذاهبة لزيارة جدّتها. تمنَّت لو تهرب؛ ماذا تقول له كي يسمح لها بالهرب؟ ماذا تفعل؟ هو أقوى منها، وهي صغيرة عاجزة، وردة طريئة بلا أشواك، يتيمة بلا سياج الأب.

أنقذها صدى خطوات تقترب من الدكّان، فردّها عمران إلى مكانها وهو يحاول أن ينفض ارتباكه ثمّ ناولها حفنة ملبّس.

– إذا زرتِ عمّو عمران كلّ يوم بعطيكِ ملبّس ببلاش...

ولم يأخذ منها القروش.

خشيَت أن تخبر أُمّها بما حدث، وظلَّت تجترّ تجربتها الغامضة ولا تفهم ما حصل... لأوّل مرّة تُحسّ قذارة تلتصق بجسمها، قذارة لا تُزيلها رغوة الصابون. بعدها لم تجرؤ على أن تمرّ بدكّان عمران، وحين تعجز عن مقاومة إغراء الحبّات الشهيّة، كانت تقصد الدكّان بصحبة أترابها، فتأخذ حصّتها وتُطلق ساقيها للريح. وظلّ عمران يسير معها، يبدو لها في وجه كلّ رجل... ها هو ينقضّ عليها، في رُكن مهجور، وهي عائدة إلى الكوخ... كان واحدًا من الشباب العاطلين في القرية، يقطع أيّامه متمشّيًا بين الأزقّة... يبدأ محاورتها بالطريقة نفسها، يشدُّها من شعرها، يعبث بوجهها البريء، وتكرّ دموعها على الوسادة بصمت، ولا تفهم ما يدور في عالم خشن، قويّ، يطوّقها وتعجز يداها عن فكّ الطوق.

وترتفع الحجارة في البناء، حجرًا كلّ سنة... وتمرُّ سنوات دراستها في المعهد الرسميّ.

«هذه البنت غريبة»، تلاحظ المعلّمة ذلك، «لا تُحبّ العلم».

أُمّها تتوسّل: «يا معلّمة، أنت أمّها وبيها... عجَّزتني هالبنت».

«بنتك ما بَدها تتعلم».

«ازربيها في الصفّ اللّه يخلّي شبابك.»

نبتة بريّة متمرّدة... خصلات شعرها تتطاير في الهواء، وروحها بين يدَي القدر.

كانت تكبر كلّ يوم، داخل طوقها القاسي، وتبحث كلّ لحظة عن مهرب تنفذ منه، فتعجز. وظلّ هذا شعورها، والفخّ يطبق عليها، يدفعها إلى المشاكسة وتعذيب المعلّمة. وتشفق المعلّمة على الأرملة الفقيرة، فتُبقيها في الصف زرابة. ولم تحاول مرّة واحدة أن تكسر الطوق وتقترب من الطفلة، تبحث عن جذور التمرّد.

المدرسة عنصر آخر من عناصر التحدّي في العالم الخارجيّ القاسي؛ هربَت عدّة مرّات من الصف، لتسير بين الحقول، بلا هدف، كانت ترجو أن تجد في أحضان الطبيعة ما فقدَته بين الناس: الحبّ.

ولا تبخل عليها الأرض بالحنان، فتفرش لها أعشابها الطريئة، وتستقبلها بالزهور؛ وكانت تتمرّغ فوق وجه الأرض، وتتحرّر من أغلالها... تستحمّ بالعطر، فتتطهّر، وتسكب الدموع، ثمّ تعود إلى القرية بقوّة جديدة تمكّنها من الاستمرار.

تحوّل وجه الأرض إلى حضن الأُمّ؛ حضن دافئ يمدّها بالعطف والصفح.

الشمس تميل عن الكروم، وتترك بعدها الأشجار ذابلة، كئيبة، والطريق أتونًا ينفُث الغبار واللهب.

وفي الطريق الضيّق الممتدّ بين «طرّه» وجورة السنديان، كان العروسان يسيران في طريق العودة... هي تنقر الأرض بقدميها، تسجّل مع كلّ خطوة صكًّا لمتابعة الصراع... وهو يجترّ بقايا خيبة، ويحاول، عبثًا، أن يجد خشبة الخلاص.

«لولوليش.»

أُمّه تُزغرد في الباب، واجتمع الجيران.

طاش الجميع على فقاقيع الزغردات وصوت القُبلات المشتاقة؛ عواطف تندلق بسخاء... تطغى على كلّ شيء، عواطف صادقة، مفتعلة، تتمازج، والجميع يشتركون في سكبها وينسون نهار الأمس وهم ينقضّون على العروسين بالتهاني.

«مبروك... مبروك.»

«زقفة يا شباب... وَين المجوز...»

ويترنّح اللحن بحنان ووجع... ويتسلّق الأولاد الجدران والسطوح، ويسدّون الأبواب والمنافذ.

عادَت الفرحة بعودة العروسين، وغاب عن الذاكرة كلّ شيء، إلّا لحن الساعة.

«يهنيكِ يام مخول... لولوليش.»

ارتدى للمناسبة قمباز الأحد، ونكّس الطربوش فوق جبينه ثمّ اتّجه إلى بيت مخّول.

لا شيء يقوى على تعكير مزاج بو دعّاس... تُعاكسه الأمور فيسير في مجراها حتّى تلين... نفض عن ذاكرته كلّ ما حدث بالأمس، وضحك من نفسه لما انتابه من انفعال: «القضيّة مش حرزانة والماضي مضى... رجّال مثلك بيحطّ نفسه قبال مخّول، وهو أصغر من أولادك؟ والمثل يقول: الوعاء الكبير يَسَع الصغير».

والآن مخول تزوّج، وعليه أن يقوم بواجب التهنئة، ثمّ يحاول، على الهامش، أن يتحسَّس هبوب الرياح.

مسح شاربَيه وهو يُدغدغ أفكاره المتفائلة، ومدَّ يده يصافح العروسين: «مبروك يا عمّي... إنشاللّه بتتهنّو».

مخول تغيّر، أم أنه يمثّل؟ يبدو عليه أنّه اجتاز مرحلة القلق، قطع شوطًا بعيدًا بين الأمس واليوم... وريّا، تُقيم جدارًا منيعًا بينها وبينه... تتحصّن وراء بسمَتها، وتمثّل دور العروس الراضية... ويُمهّد للحديث بضحكة عريضة يقطعها عليه ظهور أبو مخّول:

– مبروك ما عملتو يا خيّي، واللّه ما عاد فينا لشباب هالأيّام.

– عقبى لأولادك يا بو دعّاس.

– هلّق كلّ شيء صار وانتهى... خبّرونا كيف تمِّت الخطيفة... بلا تزوير.

ريّا تتصدّى له... جاء دورها:

– أنا ومخّول متفقين من زمان يا عمّي بو دعّاس... مثل ما بتعرف. الدنيا قسمة ونصيب.

طفلة! مَن قال إنّها طفلة؟

– واللّه يا عمّي أنا بشهدلكم... إنتِ ومخّول طلعتو قَد حالكم... على كلٍّ انشاللّه بتتهنّو.

علّمته كيف يصمت؛ دحرجَت الحجر في مجرى كلامه، فحوّل الموضوع:

– وَين حماتك يا مخّول؟

– يا عمّي بو دعّاس بعدنا شي واصلين، ما لحقنا نبعتلها خبر.

الكهل يهزّ رأسه:

– لَه... لَه... هادا حكي يا مخّول؟... قوم خود عروستَك وروحو طلبو رضاها... شو بتقول، يا بو مخّول؟

– مثل ما بتشور منعمل... أنت أعلم يا بو دعّاس.

– يالله، حَضروا حالكم نتمشّى سوا... هيدي أمّ، بياخد عاخاطرها.

بابها موصد منذ صباح الأمس، لم تدخله نسمة هواء، ولم تردّ على أحد... حاول الجيران الوصول إليها فلم تفتح، وها هم يعودون للطرق على الباب.

ماذا يريدون منها؟ ليتركوها هنا، تموت بسلام. لماذا تخرج؟ وكيف تواجه الناس:

– حلّوا عنّي.

– افتحي يام سعد... أنا بو دعاس.

يقرِّب أُذنه من الباب يُحدّد السمع، وقد خشِيَ أن يكون قد حدث لها مكروه.

– افتحي وإلّا منخلع الباب.

ها هي تستجيب للنداء، تسحب قدميها متّجهة صوب الباب... ثمّ تشرِّعه وتقف واجمة.

– لا، ما توقفي هيك يام سعد... قرّبي اغمري العروسين واعطيهم بركتك.

تظلّ على جمودها، ويُمهلها بو دعّاس، وهو يدفع العروسين وبو مخّول إلى قلب الكوخ.

– يام سعد، منعرفك حكيمة وصاحبة لسان دافئ... بنتك تكلّلت وانتهى الأمر، وهي راجعة تطلب رضاكِ.

كلماته إبر تخز ريّا في أعمق مشاعرها، فتُحسّ أمعاءها تتمزّق، وتفتح فمها لتحتجّ، فتذكر اللحظة الحاضرة، وتعود إلى الصمت من جديد.

– يا مخّول، قبِّل إيد حماتك... وانتي يا ريّا... اغمري أمّك واطلبي بركتها.

قشور... هذه كلّها قشور، والساعات التي مرَّت بين الأمس واليوم تقف فاصلًا بين الأرملة وابنتها، تُباعد بينهما، فترى الواحدة الأخرى من خلال منظار ضبابيّ.

كلّ ما يريد الآخرون أن يبصروه هو القشور؛ تضحك أو تبكي أو تئنّ... ولا يهمّ ما في الداخل.

لبَّت الأرملة أوامر بو دعّاس، فارتدَت ثوبًا لائقًا ورافقَت العروسين؛ كانت تسير بينهما، جثّة بلا قلب ولا إرادة؛ لقد مات في صدرها الحسّ من زمان... ماتَت قدرتها على الانفعال.

ظلَّت عينا ريّا تبحثان عن شخص واحد، لم تجرؤ على أن تسأل عنه... تمنَّت لو تُبصر وجه ناجي يطلّ عليها من خلف الأقنعة الشاحبة... (ناجي، أين أنت؟ ليتك تلاقيني عند ضفّة النهر، لأشكو لك همّي).

أحسَّت بالذنب وهي تفكّر فيه، كيف قذفَته من دائرة حياتها؟ تخلَّت عنه، خلعَته كالثوب المهلهل... (ناجي! إنّها ظروفي القاسية... عندما أراك أُخبرك كلّ شيء... وعندها يمكنك أن تغفر. أنا في كهف الذئاب والثعالب، وسأبقى أُصارع حتّى النفس الأخير، لا من أجلي بل كرمى لعينيك، وأعيُن الضعفاء المعذّبين. من أجل طفولتنا البائسة المستغلّة، سأنتقم لك ولنفسي، أنا الوسيلة وموضوع الانتقام، سأُقدّم لهم نفسي قربانًا... شمعةً يحرقونها ومعها سيحرقون أيديهم ورموش أعينهم وربّما تحترق الأقنعة البلهاء.)

لن يطلّ ناجي، سيبقى في دروب الماضي؛ نبتة نُزِعَت من مكانها، وظلَّت جذورها عالقة في تربة الذاكرة.

لقد علم بالخبر حين عاد من الكرم؛ ريّا هربَت مع مخّول... ولن يُبصرها؛ كيف فعلت ذلك؟

سؤال لم يجد له جوابًا، طاف حول كوخها طوال الليل؛ وكلّما وصل أمام الباب مسح الخبر من رأسه وحاول أن يطرق لتفتح له... (لا تستطيع أن تهرب، يجب أن تكون في الداخل) ثمّ تراجع، وهو يمسح دموعه... وفي تلك الليلة استباح السطو على جيب عمّه، فاختلس بضع ليرات تمكّنه من الوصول إلى بيروت.

ذِكر ناجي أعاد إلى ريّا عاطفتها وحرَّك مشاعر جمَّدَتها شهوة الانتقام، فأحسَّت بمثل الندامة تعضّ صدرها؛ لماذا تجعل هدفها الإنسان الذي يحبّها؟

ولكنّها وصلَت إلى نقطة اللارجوع، ولن تستطيع أن تهرب... ومخّول، جعل نفسه مطية سهلة، ارتمى بين براثنها، باتَ أداة تستخدمها لتصفع بها الآخرين وتنتقم.

كانت تسمع أنفاسه تتصاعد باتّزان وهدوء... هو قربَها... لا يفصلها عنه شيء، وفي حسّها هو بعيد يعيش في عالم آخر... ومن داخل ذلك العالم الذي يلفّه ويطوّقه سوف يمدّ يده لينالها... ربّما يفكّر فيها الآن ولا يجرؤ على البوح بكلمة، يفكّر كيف يستولي عليها... يعدّ نفسه لهذا المساء، ويأمل الانتصار.

وهي تفكّر في الموضوع، وبطريقة جديدة تقاوم بها حتّى آخر نفَس... الناس أمامها يرقصون ويمرحون؛ هذا يوم فرحها؛ هل هم فرحون؟

مشاركتهم البلهاء تسدل ستارًا كثيفًا بينها وبينهم، رغوة صابون فارغة، تستطيع أن تخفي صفحة الماء.

وتروح تبحث عن وسيلة لقهر نفسها وتعذيبها، فتنقل بصرها بين الوجوه؛ بو دعّاس ينفض «قمبازه» ويهمّ بالخروج... أُمّها تجلس في زاوية قصيّة؛ كومة همّ وعجز. فتيات القرية؛ ولا واحدة تعرف أسرارها، والصبية الصغار، وطيف ناجي.

تقطع عليها الحماة حبل أفكارها: تمسكها بيدها وتقودها في اتجاه الباب، فتجرّ ريّا رجليها جرًّا... حماتها لا تشعر بشيء، لا ينتفض فيها عرق احتجاج، ترتدي كلّ مناسبة وكأنّها ثوبها وتعيش برضى، مثل الخوريّة.

وهذه الدعوة السرّية إلى أين؟ تتبعها بلا سؤال... جثّة متحرّكة، وكأنّ الأمر لا يختلف لو أحضرت المرأة صندوقًا، وضعتها فيه وحملَتها... تصعد أمامها درجات سلّم، تعبق في أنف ريّا رائحة طبخ تفوح من أطراف ثوب أُمّ مخّول، ويعلق بصرها بشقوق القدمين. من خلال هذه الشقوق ينفذ كلّ الهمّ والعناء... إنّه المخرَج الوحيد لآلامها. وفكَّرَت في أنّها ستصبح مثلها، تتقدّم كنّتها على درجات سلّم صغير، والمسافة لن تطول كثيرًا، وخلالها لن يتبدّل شيء؛ دورة تلي الأخرى وتكرُّ الأيّام، وتبقى الأمور على حالها.

لم تدرس ذلك في كتاب التاريخ، ولكنّه حدسها؛ التبديل عدوّهم اللدود، والجديد الثائر يموت هنا وتدوسه الأحذية الثقيلة.

وها هي تنفر من جيلها وتثور، فتتلقّى الصفعات ووخز الإبر، وتتحمّل آلامها لتتابع المسير، يحدوها دافع لا تدركه ولا تعيه، يقذفها لتحيا حياة جديدة خارجة على التقليد.

والآخرون من حولها، يُحيطونها بالشباك وأمراس القنّب، يربطون كلّ عضو من جسمها ليشدّوه إلى التراب... وتعتقد أنّها أقوى منهم فتقطع الأمراس باحثة عن الحريّة والمحبّة وطيف السعادة.

المرأة تقف في وسط الغرفة:

– العلّيّة لكِ ولمخّول يا بنتي.

«العلّيّة» تعني الغرفة الجديدة المبنيّة فوق السطح، غرفة واحدة جدرانها رماديّة، مبنيّة من حجارة الإسمنت؛ رقعة جديدة في الثوب القديم، تخدم الغاية. لا، إنّها لا تنتقد، وكوخها ليس أفضل من هذه «العلّيّة»، ولكن هناك، في ظلمته، كانت تستطيع أن تغزل الأحلام وتبني قصورها الفخمة... لم تحلم أبدًا أنّها ستنتهي في الكوخ ولا أن تُقيم في هذه «العلّيّة». كانت ترتفع مع أحلامها وتسافر مع الوجوه الغريبة والعربات الجديدة... عربات لمّاعة تطلُّ على القرية إطلالة عابرة ثمّ تغيب.

المرأة حماتها، تقف أمامها الآن، تقدّم لها الغرفة... الشرَك الجديد.

أحسَّت بالاختناق وهي تفكّر في أنّ أحلامها ستُدفن هنا؛ في هذا المكان سوف تستيقظ كلّ صباح، وتنام في المساء، وهنا ستحبُّ زوجها وتُنجب له الأطفال.

ابتلعَت أنفاسها حتّى تكبُت الصرخة المتحفّزة، وابتسمَت لحماتها وهي تشكرها: «العلّيّة حلوة... كتِّر خيرك».

في عيني المرأة كلام آخر، تجاهلَته وهي تسير إلى النافذة، تطلّ منها على الخارج.

تعرف ما هو السؤال الوحيد الذي يجول في رأس كلّ واحد منهم، ولن يلبثوا أن يرشقوها به.

عادَت حماتها إلى الحلقة الصاخبة، وظلَّت هي في الغرفة متعلّلة بالتعب، ليتسنّى لها الانفراد.

«ارتاحي يا حبيبتي.»

اقتربَت منها المرأة تُحيطها بذراعَيها، فعبقَت في أنفها رائحة أنفاسها وعرقها ممتزجة ببقايا رائحة البصل والسمن.

تكوَّمَت ريّا على نفسها وقد أحسَّت في صدرها موجة انزعاج ورفض؛ كانت تتوق إلى عالم فقدَت الأمل بالوصول إليه، إلى أشخاص رسمَت صوَرهم في مخيّلتها حتّى أصبحوا يرافقون خطواتها ويتحرّكون معها، باتوا أحبابها وأقاربها، وهم أُناس لهم وجوه القدّيسين وطباعهم؛ يتركون، أينما حلّوا، عبق البخور وحفنات الفرح، يعتقونها من أغلالها ويغرزون أجنحة فوق كتفيها؛ فتندفع للتحليق بعيدًا عن وجودها.

وكان الحلم ينتهي أبدًا بأن تحطّ على طرف سطح من تبن، فلا تكاد تطأ الأرض بقدميها حتّى تتزحلق وتهوي.

بكلّ هدوء أوصدَت الباب وعادَت إلى علبة خيالها، تخرج فرسانها وتصفّهم حولها؛ مؤتمر صغير تعقده معهم ربّما استطاعوا إرشادها وهديها.

تمدَّدَت فوق السرير وأغمضَت عينيها، وفشلَت في دخول عالم البلّور. ظلَّت أصوات الضحك والهرج تنفذ إليها من شقوق الباب، من النافذة المفتوحة، من كلّ مكان.

أصوات مَن؟

كادَت تنسى المناسبة، ودَّت لو يكون هذا عرس الجنّ؛ أصواتهم كزعيق الجِنّ، تُزغرد النساء ويتراشق الأولاد بالحصى وبأغصان الشجر.

تمنَّت لو تمضي في غفوة أبديّة لترتاح، فلا تعود إليهم ولا تواجههم بالتحدّي؛ وتسمع حوارها مع ذاتها: – إلى متى يدوم صراعك؟ وهل يُسعفك ضعف قدمَيك، وليس لكِ صديق؟

– لكنّي لم أطلب مساعدة أحد؛ وحدي دخلت هذا العالم، وسوف أبقى واقفة على رجليّ لا على عكاكيز الآخرين.

– أخبريني، باللّه عليكِ، هل الأمر يستحقّ هذا العناء كلّه؟

– نعم، أُريد أن أعيش بحريّة.

– وأنتِ حرّة... بل هي حرّيتك الزائدة ما يُضايقهم؛ اخترتِ مخّول بملء إرادتك، سُقتِهِ كالنعجة التي تُساق إلى المسلخ، وماذا تشائين أكثر؟

– لا، ما أنا اخترته، دفعوني إلى تلك الفعلة... وأنا نادمة، نادمة. طاقة خفيّة أقوى منّي تتسلّط عليّ وتدفعني لأعمل ما لا أشتهي... أنا ليست لي إرادة.

– ولكنّك لم تعترضي على مجراها مرّة.

– هي أقوى منّي وأنا جاهلة.

– إنّك تبحثين عن المتاعب ولا يمكنك أن تعيشي باستقرار، ولا تعرفين صالحك.

– هذا صحيح، لكنّ صالحي ليس في هذا الواقع؛ أتوق إلى الأفضل، إلى دنيا أعلم أنّها موجودة وسبيلي إليها مسدود.

– وهذا الغضب على المقرّبين، ما الدافع إليه؟

– اصمتي، لا تذكّريني بهم. لقد بروا روحي، حزّزوها، أحرقوها بمياسم النار؛ ألا تبصرين آثار الحروق؟

– ولكنّ الماضي مضى، ولِمَ شوقك للرجوع إليه؟

– لأن ليس لي حاضر أتعلّق به، ليس لي صديق.

– ومخّول وأُمّك وبو دعّاس؟ أنتِ ظالمة.

– أُمّي!... هه؛ مرّة واحدة مرَرتُ في أحشائها ثمّ خرجتُ إلى غير رجعة، وهي لم تحاول الوصول إليّ.

– اخرسي، كافرة، ناكرة الجميل.

– اجلديني، أخرسي صوتي... أشتهي الفناء؛ لو أموت الآن وأستريح.

– ومخّول، أيّتها المحتالة، لا يُظهر لك إلّا كلّ محبّة.

– أرفضه؛ الأبله، لا تتحدّثي عنه.
– وهل اخترته لتُتعسيه؟ هل يرضى ضميرك عن ذلك؟
– الأبرياء يصلبون.
– لم أعهد فيكِ هذه القحة... وكنتُ أظنُّكِ اهتدَيتِ.
– حاولت أن أبني الجسر الذي يصلني بالعالم وفشلت.
– وفشلكِ ناتج من الحقد... إنّك لا تُحبّين مخلوقًا.
– تُضحكني فلسفتك... الحبّ! متى أبصرت له وجهًا؟ حُرمته طفلة ولم أعد أستطيع لقياه... الحبّ كلمة فارغة لشيء غير موجود.
– لا يوجد في حياتك، ولكنّه يُظلّل حياة الآخرين ويبطّنها، وهؤلاء الناس ما الذي يدفعهم إليك سوى الحبّ؟
– لا تُسمّي الحشريّة حبًّا؛ إنّه فضولهم.
– أنتِ مجنونة؛ صحيح فيك قوّة غريبة، روح شيطانيّة وتحتاجين إلى الصلاة والغسل بماء الزوفا لتطهري.
– أحتاج إلى سلخ جلدي والهرب من نفسي، من عالم يكاد يطبق عليّ كشدقي حوت، أنا أختنق ونادَيتك لتُسعفيني فانضمَمت إلى جانبهم.
– أنا مع الحقّ، وأنتِ ظالمة كافرة.
– إنّي إنسانة... هل تفهمين؟ وهذه طبيعتي، هذه هبة الأجيال لي.
– أنتِ مرائية، وكلّ ما يهمّك إثارة الآخرين واستدرار عطفهم وانتباههم. لو أنّك تريدين الموت لأقدمت عليه من زمان.
– ولكنّي مقبلة عليه، أوَتُسمّين هذه حياة؟
– أنتِ عروس، زوجة رجل آدميّ.
– لن يقربني... لن أسمح له بامتلاكي.
– بل أنتِ ملكه، والعالم كلّه يُقرّ له بذلك.
– وهذا ما يدفعني إلى التمرّد، هذا الامتلاك؛ كنتُ ملك الآخرين والآن انتقلتُ إليه، متعة؛ لم أشترك مرّة في تقرير مصيري.
لتأكيد تمرّدي وإرادتي طلبتُ إليه أن يسير معي، وندمتُ بعد الخطوة الأولى، وكان صعبًا عليّ التراجع، وإذا الحريّة التي طلبتها تصبح غلًا في عنقي.

حاولتُ أن أسخر منهم ومنه، فانتهيتُ إلى هذه الحال... أنا خائرة القوى... ضعيفة، ضعيفة، اتركيني.

– تصرّفي بعقل لتمسحي كلّ ما مضى، أطيعي زوجك وسايري مجتمعك.

– اغربي عن وجهي، لا أُريد أن أسمع صوتك بعد الآن... أنا حرّة... حرّة.

– هه... هه... هه.

استيقظَت من غفوتها على صدى قهقهة ساخرة، وتلفَّتَت حولها؛ كانت الغرفة خالية، والصخب يخترق النافذة المشرّعة.

مسحَت العرق عن جبينها، وعجزَت عن تحريك لسانها بين جدران حلقها.

وظلَّت الأصداء تتدفّق في أُذنيها تدعوها إلى الخروج.

جرَّت قدميها جرًّا وكأنّها تسير في حلم، ثمّ هبطَت على السلّم إلى مقرّ الجماعة.

«يوم فرحتك».

دعاء؛ عبارة تنطلق عفوًا، وتلتقطها أُذناه طفلًا، ويكبر ويظلّ الناس ينتظرون يوم فرحته، لماذا؟

ها هم يتجمّعون حوله وحولها: «يوم فرحتك» تنطلق الحناجر بالزغاريد وترتعش الأرواح وتمتلئ حلبات الرقص.

وأيّ فرحة هي؟ هذا اللقاء المقرّر بين شخصين لماذا يهمّ الآخرين؟ الجيران والأهل والأقارب؟ وقبل أن تتمّ الفرحة تشترك العائلة الكبيرة، القرية بكامل أعضائها، لتقبل، لترفض، لتقول كلمتها، لتتاجر بالعروسين، لتنشر الفضائح والملائح... تنبش تربة الأجداد، وتغرز الأظافر إلى حدود العظم، وتنقطع عن الصوم والصلاة والعمل، لتحصر إمكانيّاتها كلّها في تقرير مصير اثنين.

والفرحة محطّة، نهاية مرحلة، نقطة صغيرة تحطّم رتابة الخطّ السويّ لحياة القحط والسأم.

وحين يتمّ اللقاء يتجمّع الكبار والصغار ليكونوا شهودًا، ليمهدوا بالأغاني والزغاريد والطبخ الدسم.

كانت ريّا ترقبهم من فوق، من برج خيالها، ترقب اهتزاز القدود الفتيّة، وتمعن في الإصغاء لعلّها تستوعب شيئًا ممّا يقال في محاسنها. كلام الآخرين

منمّق، بديع، يصف قدّها وعينيها وشفتَيها وخدّيها؛ يشبّهها بالرمّان وحبّ البندورة، والغزلان الشاردة، وبياض الثلج.

وينصبّ الكلام فوق رأسها ألسنة نار تُذيبها، تحاول إنضاجها في قدر مضغوطة.

ورفعَت جدران الكلس، أحكمَت إيصاد النوافذ، وظلَّت أصواتهم ترتطم في الخارج؛ وكلّ ما يصلها صدى الارتطام.

(لن يفعل بي سحركم مهما اجتهدتم في المحاولة؛ سأظلّ غريبة عن دنياكم، عن عالم الشعوذة، سأظلّ واقفة في الباب لأنّي أرفض الدخول).

تابعَت صراعها حتّى تصل بنفسها إلى مرحلة الخدر.

كرهَت العواطف العارية، المسفوحة فوق خدّيها وشعرها؛ قُبلات النساء، عناق الفتيات ونظرات الرجال تسدّد إليها، تستبيح وجودها.

هي الآن مائدة مفروشة للجميع... ومن حولها النساء يتقدّمنَ في الخدمة، في دعوة العريس ليتذوّق طبخهنّ الشهيّ.

دعوة عارية، تلوّح العاطفة، ويتخلّى أحدهم عن وقاره فيُعابث أقرب الفتيات، أو يشدُّ أخرى من يدها، يدعوها إلى الرقص؛ وتتمنّع الصبيّة بخفر، ويضحك الآخرون.

إلى متى تستطيع أن تتحمّل؟ لماذا لا تسقط على الأرض، تمرّغ وجهها، وتذرف الدمع؟ صوت جديد ينخر أذنيها: «إجا دورك يا عروس.»

والعروس ترقص يوم عرسها، تتمايل أمام أعيُنهم؛ في يدها منديل حرير، والشمس تُشرق من عينيها ووجهها، ويلوّح منديلها فوق رؤوس الحضور، يوزّع نثرات فرحتها ورضاها. العروس ترقص، ويصفّق الآخرون، ويندفعون معها إلى دنيا السكر.

وهي، حين جرّوها إلى حلبة الرقص، أحسَّت أنّ أحمال الرصاص تثقل قدمَيها، تشدّهما إلى الأرض فتعجز عن تحريكهما.

رصاص في القدمين، ورصاص في الروح.

(كفاني رحماكم، كفاني عذابًا.)

تراجعَت إلى الوراء، وارتمَت فوق المقعد، فاقدة الحركة.

«أغمي على العروس، أسعفوها بماء الزهر... أسندوها بأقراص الزبيب، أنعشوها بالتفّاح... العروس مريضة حبًّا.»

وريّا، إن مرضَت من شيء فلن يكون من الحبّ.

انقضى النهار وبابها موصد، سجنها ضيّق وحبل الأمل أوهى من خيط العنكبوت.

لم يُسعفها ماء الزهر، فحملوها إلى «العلّيّة» ومدّدوها فوق السرير. حملها مخّول، وكانت أوّل مرّة يمسّ فيها جسدها من دون أن يُحسّ كلّ عرق من عروقها ينتفض بالرفض ويتصلّب كخيوط النحاس.

عيناها مطبقتان وصدرها يعلو ويهبط بهدوء؛ طفلة مستسلمة للرقاد، تمثال شفّاف يخشى إن وقع من بين ذراعَيه أن يتحطّم ويذوب.

رفعها بتأنٍّ وأراحها على السرير، ثمّ جلس بجانبها يحرسها.

كان يواجه واقعه باستسلام مرير؛ لم يفهم شيئًا ممّا حدث... وفي الدار تفرّق الناس، انسحبوا من العرس، مخلّفين الصمت وأثر الهمس المكبوت.

دُعِيَت أُمّ سليمان لتقرأ معجزاتها في ردّ العين الفارغة على حصاة ملح... وعقدَت الأُمّ والحماة اجتماعًا طارئًا؛ لا بدّ من أن يكون في الأمر سحر... وعليهما أن تبحثا عن الأثر... «الخط» لقد خطَّ لها أحدهم. «بو هرموش» الضرير، يمكنه أن يكشف مكان السحر. كتبوا لها، وسقوها السحر مع الماء، أو دفنوه في جذع شجرة.

«أولاد الحرام كتار»، كانت الأرملة تفرك يديها، إقرارًا بالعجز... ركضَت حافية إلى بيت الضرير: «اكشف لنا عن السحر، يا بو هرموش... ريّا، بنتي خطّولها».

وحماتها حملَت حصاة الملح تحرقها في النار وهي تتمتم العبارات الغامضة التي جرَت على لسانها: «اللّه يقلع عيونهم... الحسد... الحسد يخرب كلّ دار عامرة».

وجلس مخّول يراقب ما يحدث ساندًا رأسه بيديه، متسائلًا كيف ينتهي به الأمر؟ لم يَعُد يقوى على رفع رأسه ليواجه شباب الضيعة.

البليّة التي ورّطَته فيها بنت حوّاء: لعن اللّه جنسهنّ؛ «جنسهنّ ملعون يا ستّي» تذكّر عبارة جدّته، كانت تصبّها في أُذنيه كلّما علكَت الألسُن اسم امرأة.

وها اللعنة تحلّ عليه، وكان يحسبها نعمة ستَملأ بيته خيرًا وسعادة!

ليتها لا تنهض من غيبوبتها، فيرتاح، ولكن... يعجز عن التفكير في ذلك، لا يستطيع أن يفقدها؛ إنّها نعمته وصليبه، من دونها لن يذوق الحياة ولا العذاب.

شرد فكره صوب الحقول؛ على وجه الأرض الطيّبة لا مجال للعذاب والهمّ. الأيّام تسير بالتعاقب... والأرض لا تخون ولا تتمرّد؛ وفي الربيع تنتشر القطعان في العرس الأكبر، تشارك الطبيعة خصبها، وهذه المرأة تتمرّد، تعذِّب. لماذا اختارها من بين فتيات الضيعة وهي دونه نسبًا؟ وكان في إمكانه أن يختار واحدة غيرها... ولكنّه أحبّها، فما الذي جعله يحبّها؟

كانت تختلف عن الجميع: جمال وذكاء وحيويّة وفقر.

وأُمّه علَّمته أنّه إذا هو اختار عروسًا من أُسرة دونه مقامًا يستطيع أن يتحكّم بها... تكون «كالخاتم في خنصره». وحفظ وصيّة أمّه، وسائر الوصايا؛ وظلّ يرقب نموّ ريّا من بعيد ويخجل من أن يقترب منها بأكثر من تحيّة صباح أو مساء.

لم يكن يحبّها وقتذاك، والحبّ بدأ يفرِّخ في صدره على أثر جلسة بو دعّاس. نعم تذكّر، هو دفعه إليها دفعًا: «هالبنت يا مخّول، بتسوى قبيلة».

«اللّه يخلّيها لأمّها.»

قالها بلهجة لا تخلو من سخرية.

ثمّ في جلسة ثانية:

«ولك يا مخّول، لو بعدني شاب، ما باخد غير هالبنت.»

حديث عابر مع قرقرة النارجيلة.

وحين يعود الشاب إلى نفسه يفكّر في أقوال الرجل؛ كلمات بو دعّاس تهبط على وجوده محكمة السبك، لبقة، ثمّ تصبح قيودًا في يديه ورموش عينيه.

وبدأ يراقب ريّا من بعيد.

الرجل على حقّ، وهي تختلف عن سائر الفتيات؛ وزاد تعلّقه بها حين لم تعره انتباهها، وصار يحثُّ الخطى في أثرها، يختار الأماكن التي تمرّ فيها ليقابلها من بعيد من دون كلام.

وفهمَت بغريزتها معنى حواره، فأمعنَت في الهرب والتجاهل، وظلَّت، في الوقت ذاته، تحكم حوله شباكها؛ توفّره وليمة دسمة ليوم آت.

لم يكن يفهمها، ولا أحد استطاع أن يفهم تلك المخلوقة الغريبة.

«الصبر يا بني، وطول البال» أحسّ يدًا لطيفة تمرُّ فوق عنقه... أمّه؛ أتُراها شعرَت بما يجول في فكره؟

غلّف أفكاره ببسمة مغتصبة، ورفع رأسه يواجهها بنظراته القلقة: – شو قولك يا أُمّي؟

– حسد... حسدتنا الناس يا بني.

– على شو يا أمّي؟

– يا بني، ما سألتك، شو صار بينك وبينها؟

انتفض واقفًا، وأجفلَت أُمّه؛ نفذ الذعر إلى قلبها.

– اتركيني برضى اللّه عليك.

تتركه وهي تودُّ مساعدته؟ تتركه، والقلق ينهشه، وعيناه حمراوان، لم يذق النوم طوال الليلة الفائتة؟

وفي اللحظة الحاسمة يطلُّ بو دعّاس.

وقف يقيس الشاب بنظراته، ثمّ ردّ طربوشه إلى الوراء واستراح فوق الكرسيّ: «اتّكل على اللّه يا مخّول... اللّه كريم».

(اللّه كريم؛ هو الذي أرسلك الآن لتبشّرني بكرمه؟ يا شيبة النحس، أنت سبب وقعتي، علَّقتني فيها من أوّل الطريق.) وحين لم يلتفت إليه الشاب ولم يردّ بكلمة، فداه بو مخّول: «إي يا خيّي بو دعّاس، ما في غير رحمة اللّه».

– بعدها العروس على حالها؟

هزَّت أُمّ مخّول رأسها باستسلام: «كانت مثل الفدّان، صحّة وعافية... صيبة عين، ما في غير العين الفارغة والحسد».

تدحرجَت ألماس على السلّم وسبقها صراخها:

– مخّول... مخّول عجِّل.

هرع صوبها كالمجنون.

– ريّا فتحَت عينيها.

– دخيل اسمك يا اللّه! ما قلت لكم صيبة عين؟

وقفزَت أُمّ مخّول بخفّة الغزال، ثمّ تبعها الآخرون... وفي أقلّ من لحظة كانوا يتكوّمون حول ريّا.

ولم تستطع أُمّ العريس أن تكبُت فرحَتَها، فأطلقَتها زغرودة مجلجلة: لولوليش...

وانحنَت فوق كنّتها، تُبلّلها بالدموع والقبلات.

أفاقَت ريّا، إذا كان تفتيح العينين يعني اليقظة، وراحَت تجول بعينيها بينهم، باحثة عن طيف واكبها في أثناء غيابها عن الوجود؛ واستقرّ بصرها على مخّول لحظة، ثمّ لم يلبث أن تحوّل عنه إلى الزاوية، وأجهشَت بالبكاء.

دموع سخيّة... بكاء السحب بعد العواصف الهوجاء. وإذا سقط المطر في الصيف يغسل الغبار العالق بأوراق الشجر، يُبلّل القشّ الباقي في حقول القمح؛ مطر الصيف فرج.

دموع صامتة تندلق من عينيها وتغور في الوسادة، وهي عالقة في المصيدة، ولا مهرب، ولا تراجع.

وهؤلاء من حولها يطرحون الشباك، فلا تفلت من واحدة حتّى تعلق في التالية.

ومخّول بريء... ليتهم يتفرّقون لتقول له ذلك، وتطلب منه المغفرة والخلاص.

(لم أقصد أن أُصيبك بالأذى يا مخّول، أتفهم؟ هل تستطيع أن تفهم؟

كانت حياتك خطًّا مستقيمًا، ثلمًا مشقوقًا في سهلكم الكبير، وكنتَ دائمًا فلّاحًا ماهرًا، تخرج الأثلام من تحت يديك مستقيمة، وهكذا لن تفهم تعاريج حياتي. أيّامي خطوتها في السراديب الموحشة، وكلّ سرداب أتون نار خرجت منه شيئًا جديدًا.

وبقيتُ أحيا بين السراديب، وأنتَ تعيش فوق سطح الأرض، تتلقّى قُبل الشمس، ولا تخشى وضح النهار.

وأنتَ طيّب وتحبّني؛ لن أجرؤ على المضيّ في تعذيبك.)

وكأنّما استمدَّت من أفكارها قوّة جديدة، فجفَّفَت دمعاتها بطرف الغطاء ونظرَت إلى الوجوه الخمسة المتّجهة إليها، ثمّ تمتمَت بانكسار: – اتركوني لحظة... مع مخّول.

– هذا حقّ؛ الحمد لله على سلامتك يا عمّي.

تواروا وأغلقوا الباب بهدوء: «سبحانك يا اللّه، لو ما سمّينا للبنت شو صار فيها؟».

اصطكَّت ركبتاه ولم يدرِ كيف يتصرّف! الفرحة تخبط جدران صدره كرفّ أجنحة... ووجهها المغسول بالدموع، يستريح فوق الوسادة، يتكسّر فوقه نور الصباح.

اقترب منها، لا يحوّل عينيه عن الوجه:

«الحمد للّه على السلامة»، همسها في أذنها وقاطعَته:

–تحبّني يا مخّول؟

– بدّها سؤال؟ أكثر من حياتي.

– يعني بتقدر تضحّي كرمى لي؟

– بالغالي والرخيص يا حبيبتي.

– طلّقني... طلّقني...

جُنَّت الفتاة. سرى الجزع في عظامه:

– ريّا أنتِ تعبانة؛ ارتاحي، وما بيصير غير على خاطرك.

– أنا مرتاحة يا مخّول، أنا بكامل الوعي والقوّة وأنتَ طيّب. أنتّ من طينة الملائكة، وأنا مستنقع خبيث، اهرب قبل أن تغرق، من أجل حبّك لي طلّقني.

– كرمى لحبّك، ما رَحْ اتركك... بدنا نعيش سوا... تذكّري أنا ما جبرتك عالزواج.

– خطيئتي الكبرى... وما رَحْ تنساها... على العمر.

حاولَت أن تسحب يدها، تمدّها إليه، فخانَتها إرادتها؛ كان التعب يسري في عروقها يخدّرها، وفارقها كلّ دافع إلى التحدّي.

لن تتحدّاه، ولن تستطيع أن تخضع له؛ والقوّة الغريبة تحرّكها، تحملها فوق مدّها وجزرها إلى عوالم بعيدة، ثمّ تعيدها من جديد.

(جسمي يسكنه الشيطان، ولن تكون هناك نافذة للملائكة، للأطهار.) شجّعه صمتها، فاقترب منها وجلس على طرف السرير؛ وانتابها شعور هو مزيج من خوف وضيق.

عادَت ترى نفسها طفلة تحمل القرش في باطن كفّها وتطرق دكّان عمران، ويجرض الدكنجي بريقه، وهو يرفعها فوق الصندوق.

أسنانه الصفراء تهتزّ في عينيها أعمدة طويلة... عصيّ مردة؛ وتصاب بالغثيان، ثمّ تعود تركض في السراديب المظلمة وعمران جادّ في أثرها؛ يتربّص بها عند مفارق الطرق، ويطرق بابها في الليل مرتديًا قبّعة شيطان وعباءة سوداء... ويكشّر عن أسنانه، تحتمي بفراشها وتسمع أصداء صوتها الطفل: «لا... لا تقترب منّي».

– بتحبّي الملبّس يا عمّو؟

– لا، ابتعد... لا أحبّ الملبّس.

تتّسع التكشيرة وتصبح جوانب الكوخ مرصوفة بالأسنان الصفراء الحادّة، وينفتح شدق واسع، يقترب منها، ليغرز الأنياب في اللحم الطريء.

وتُطلق صرخة حادّة ثمّ تفتح عينيها، فتُبصر القنديل النائص يسهر بصبر، يرعاها، يكشح الظلمة من حولها.

ويغلّ في أذنيها شخير أُمّها، فتعود إلى النوم.

يد مخّول تمتدّ إلى وجهها تداعب ذقنها، فتردّ اليد بهدوء.

– أنتِ تكرهينَني يا ريّا.

كيف يفهمها؟ كي يستطيع العودة إلى الوراء، ليعبر معها سراديب الظلمة والضيق؟

التجربة صليبها وحدها، لا يشاركها في حمله إنسان.

الزواج في جورة السنديان لا يخصّ شخصين؛ الرجل والمرأة وسيلة التمثيل، ولا يهدأ بال الآخرين قبل إسدال الستار؛ وتبقى علامة استفهام مرتسمة في الجوّ، فوق المسكن والوجوه وأطباق الطعام حتّى تقدّم الحجّة.

وشهدَت الجورة مئات الزيجات، وكان لكلّ عرس قرص؛ ولكنّ أُمّ سليمان أقسمَت أعظم الأيمان، في الصبحيّة التي أقامَتها نظميّة حول فنجان قهوة، أنّ زواج مخّول وريّا كان أعجب من العجب، ولم تشهد خلال خمسين سنة قضَتها فوق تراب هذه الدنيا مخلوقة أغرب من هذه الفتاة: – بتذكري ولك يا نعيمة؟ كلّ عمرها غير شكل عن بنيّات الضيعة؟

– ياختي ساكنها الشيطان؛ يا اللّه، مليح اللي لقت واحد يسترها.

– ومين عم بيجيب سيرة السترة؟ المهم، انسترِت؟ اللّه يعينك يام مخول، رَحْ يخرب بيتها، اشهدوا على كلامي.

– بو سعد خلّف، اللّه يغمّق له. قولي لي، مِن وَين هالشطارة كلّها؟

– المعترة ألماس ربّتها بالقلّة والدموع.

– اللّه بخلقو عجيب.

– قولك وين صارت الطبخة؟

– ما بعرف؛ أمّ مخّول ما فتحِت تمّها.

– اسكتو؛ السرّ عند بو دعّاس، عرفتو إنّو كان مدبّر الخطيفة ومتّفق مع الأمّ؟

– لا يا شيخة!

– وبتلوميها ولك يا نعيمة؟ بدها الخلاص.

– المهمّ خلصِت؟

– خذي، اشربي قهوتك وسكّري عالباقي.
– بعد الخير لقدّام، هالبنت فضيحة الضيعة، اللّه يستر على بنات الناس.
– اللّه يستر على طالب الستر، بس ريّا الشرّ بدمّها؛ ما كنتي تشوفي مشيتها وتطليعتها بالشباب؟
– وحفلتها بعرس فريد بك... مليح اللي رضي ياخدها هالمخّول.
– طنجرة ولقت غطاها؛ لو ما كان معتّر، ما شايف غير طرف المسَّاس، كان رضي فيها؟
– يقطع لسانك، ما في أشطر منك بتفصيل الناس.
– خلصونا، كلّ عنزة معلّقة بعرقوبها.
– بدّك الحقّ، هالعنزة معلّقة بعرقوب كلّ الرجال وأولهن شيبة النحس، بو دعّاس.
كانت هذه ذروة الفكاهة، فانطلقَت الضحكات نحاسيّة الرنين، قاسية، شامتة، وامتدَّت الأيدي مداعبة؛ واحدة تشدّ جارتها بطرف كمّها، أو ضفيرتها، وأخرى تمسك خاصرَتَيها بيدَيها. وعادت بهيّة تصل ما انقطع: – فكَّرتو من كبر أخلاقو مهتمّ فيها؟ هي موضوع قابل، ضرسها طيّب.
– يخرب بيت لسانك.
– على كلّ حال، أحلى منك ومن بناتك، ما عرفتو تدبّرو عريس.
– ما تفتحي سيرة بناتي مع الكلبة.
– والكلبة صارت مرا... وغصب من رقبة الزعلان.
حلقة أخرى كانت تنعقد في تلك اللحظات في دار مخّول، يديرها بو دعّاس:
– يا بو مخّول... هالأيّام بتذكّرني بليالي الشباب... سقا اللّه على هاك الأيّام.
وكان جواب بو مخّول هزّ الرأس، موافقة كليّة، وتشجّع بو دعّاس: – لا تؤاخذني إذا تجرّأت عليك، بأملي.
– مطرح أملك يا بو دعّاس.
– مخّول ما تفتّح، والبنت مش هيّنة؛ جارتي ومربّيها؛ وأنت تعرف معزّتي لبيتكم... الصبي ناقصه بردخه.
– بسّ يا بو دعّاس...

– عارف شو فكرك؛ ابنك عم يتصرّف مثل الأولاد، لو كان رجّال، بيعطيها وهرتو؛ كفَّين وبيمشي الحال. قال: عيش كتير، بتشوف كتير؛ ونحنا عشنا حتّى شفنا ولاد هالزمان ونسوان هالأيّام. واللّه الدنيا ما خربت غير لمّا صارِت المرا تتحكّم برقبة الرجال... وفهمك كفاية.

– يا بو دعّاس، كلامك على الرأس؛ بس مخّول قدّ الحملة وزيادة.

– إنتَ ارتاح، واترك الأمر عليّ.

وخُتِمَت الجلسة.

«القدر.

المكتوب فوق الجبين لا بدّ من أن تراه العين».

يُردّدون القول باستسلام، في السهرات، في حلقات السمر. القدر، النصيب، الحدّ الأخير، نهاية المطاف في تفكير الجماعة، وبعد ذلك القحط، وبعد ذلك الأبواب الموصدة.

ويجهلون أنّهم قدر أنفسهم؛ أقدارهم البسيطة الساذجة تدبّرها الأيدي والألسُن والجيران، والذين يتمنّون لهم الخير أمثال بو دعّاس.

ليلة بعد ليلة، وفي اللحظات الدقيقة التائهة من حساب الزمن كانوا يتجمّعون، بإرادة، أو بلا إرادة، ليحوكوا قدَر الفتاة... والحياكة دقيقة، خيوطها متينة كخيوط القزّ، تلتفّ حول القلب وتطوّق أعضاء الجسم... تصبح جلدًا فوق الجلد.

وإذا ما خطر للجسم أن ينسلخ من ثوبه الآخر، يتجمّع الحائكون، أيديهم مملوءة بالحجارة، ونفوسهم مستعدّة للرجم.

في هذا الجوّ الأسود، كانت ريّا تسبح، ولا تعي سوى الكابوس يضغط ليطحن عظامها ويحجّر الدمع في عينيها. وفي سويداء القلب تعشِّش الصور البشعة: مات الربيع في صدرها والشعاع في عينيها، وباتَت عاجزة عن الرؤيا.

(قريتي وكر غربان سود؛ النساء يرتدَين الأسود مدى الحياة... وتظلّ الواحدة منهنّ في قبوها المظلم حتّى تتعثّر بها قدم رجل، فيحملها إلى قبو آخر، لتدفن، وفوق ترابها المندحر ينمو البنون والبنات. والنساء هنا فصيلة مضطهدة، لا تدري، ولا تملك الحسّ لتعي مدى ألمها... وحوّاء... ليست جدّة لهنّ، حوّاء أم التفّاح وكاشفة المعرفة.

وحوّاء في الجورة تثير الشفقة والشعور بالعجز... حتّى الأَمومة حمل ثقيل على وجودها. والولادة لونها رماديّ، لونها شاحب، لا لون لها. وأنا ملعونة لأنّي أستطيع أن أُبصر قبح الواقع... لأنّي لا أملك الطاقة للهرب والرفض. كنتُ أملك هذه الطاقة، وها هي تفارقني، تنسلخ عنّي. الزواج جزّ شعري، محا قوّتي، وأنا، ساعدتهم على قتلي... فرشتُ شعري فوق كتفيّ وطفتُ في أزقّة القرية، أُنادي عليه. وأطلَّ الناس، من النوافذ العالية، الضيّقة، مدّوا مقصّاتهم الحادّة إلى رأسي، وجزّوا كنوزه. كيف لم أهرب قبل أن يسلخوا قدرتي الوحيدة؟ ومخّول قدَري وأنا دبّرته.

ولو هربت، لسلخوني من الذاكرة، كما سلخوا «سميّة»، لكانوا صبّوا على أحرف اسمي كبريتًا وأحرقوها، واسترَحت.) وحكاية «سميّة» غامضة يخبر عنها مال قذر يجمعه أخوها في نهاية كلّ شهر، وكلّما زارها في دكّانها الخاص في المدينة.

لعنوها في البدء: «مال دنس، تعبق منه رائحة الشهوة واللحم». ثمّ جاء يوم غفروا للمال يسدّ جوع الصغار ويكسو عريهم؛ حلّلوا المال، وظلَّت اللعنة تنصبّ على المرأة.

«سميّة»، «روزين»... اسمان تدوسهما الأقدام، ولا يمرّان بفم كيلا يتدنَّس...

(من أجلك يا روزين تتصلّب عروقي، من أجل ما أبصرتُ فوق وجوه الجماعة تغلي الآن النقمة في صدري.) روزين البلهاء، الساذجة، كانت تضحك كثيرًا وتلعب ولا تحفظ الناموس. ظلَّت تحيا في عالمها الخاص، منه تتحدّث إلى الآخرين في الخارج، فلا يفهمون. كبرَت وظلَّت تحبّ الدمى، ولا تُفارقها دمية خاطَتها من القماش، من بقايا ثوب بالٍ... لقد نما جسد روزين وتمرّد الصدر وظلَّت خصلات شعرها تتطاير مع النسيم... ظلَّت تحيا في عالم الطفولة والسذاجة. وهم أرادوا أن تحفظ الناموس وتسجد أمام أيقونة العذراء وتطلب المغفرة... وذات يوم حملَت دُميَتها وسارت صوب الكروم، تغنّي وترشق الحصى على جوانب الطريق. وحدها سارَت ونسيَت عالمها، وضاعَت في الغابة. ولمّا عثروا عليها كانت تضمّ الدمية إلى صدرها وتبكي... وجدوها ممدَّدة فوق الأعشاب وآثار أنياب الذئب فوق جسدها.

أعدَّ شقيقها للمناسبة عصا سنديان وانهال عليها ضربًا، ثمّ ارتمى فوقها رجال آخرون: الأب، أبناء العمّ... ولمّا نقلوها إلى البيت، كانت جثّة مخضّبة بالدماء.

– يا ويلنا من ساعة الشؤم.

لعلع صوت أُمّ سليمان وتناقلَت أصداءه الشرفات والنوافذ.

انتقلَت الفضيحة إلى كلّ بيت، ولم يعُد يفيد سوى إهراق الدماء. والعار لا يمحوه إلّا السائل اللزج، وأبناء عمّها يعرفون كيف يهرقون الدماء في مثل هذه الساعات، ليغسلوا شرفهم من الدنس.

وأخو روزين أقسم بألّا ينام قبل أن ينتقم لشرف العائلة. وعاش الناس ساعة ترقُّب وانتظار؛ الاحتفال الكبير يبدأ مع غروب الشمس، وكانت ريّا في كوخها حين سمعَت الضوضاء وصرخات النساء. وفتحَت الباب لتخرج، وأبصرَت النساء، كلّ نساء القرية، يتنادَين، يوزّعنَ الصرخات المحمومة مثل الطيور الكواسر فوق جيفة: «أخذوها للذبح فوق صخرة الحرّة، اركضوا شوفوا.»

وركضنَ؛ واحدة تردّ رضيعها فوق صدرها، وأخرى نسيَت أن ترتدي حذاءها، وثالثة تحمل المشط، وتُكمل تسريح شعرها.

رفَّت عينا ريّا فوق الوجوه، ثمّ ارتدَّت تحتمي بالكوخ... وانسلّ إليها صوت ناشز من إحداهنّ: «هيدي آخرة الكلبات، يا ربّ نجّنا من بنات هالأيّام».

ولمّا رجعَت الأرملة إلى كوخها كانت تُتمتم كلمات مبهمة، وترسم شارة الصليب، وتصلّي ليردّ اللّه الشرّ عن ابنتها.

الصورة تحيا في ذهن ريّا واضحة، مخيفة... وتقرع الأصوات أذنيها ليلًا نهارًا: «هذه آخرة الكلبات».

حرَّكَت يدها، تردُّ الغطاء فوق صدرها: (وأنا إن سقطت فليس لي أُخوة أو أبناء عمّ يطالبون بغسل العار؛ بلى عندي مخّول، إنّه قدري بعد الآن، إنّه الطوق الفولاذيّ حول عنقي).

«دخل فيه كالنعاس». واحد من الأمثال الشائعة.

وكانت لبو دعّاس مقدرات عديدة يمارس كلًّا منها لمناسبتها، منها تحوُّله إلى ذلك النعاس الذي يغزو الجفون والقلوب، يخضعها لمشيئته. كانت هوايته الولوج إلى نفوس الآخرين، إلى صميم حياتهم؛ تلك النزعة تمتلكه كالسحر، تغور في صدره، ترفعه فوق كرسيّ القش على سقيفة داره. طربوشه مرتاح بجانبه، وعيناه تجولان على نغم النارجيلة، عينا صقر، لا يملُّ البحث عن فريسة جديدة.

تلك لحظات عزّه ومجده؛ وللّه في خلقه شؤون... وشأن الرجل أن يربض وراء ستارة المسرح، يمسك الخيوط، يحرّكها، فتتحرّك الدمى. إنّه يمتلكها ويسعد إذ يراها رهن إرادته؛ ذاك منتهى عزّه. وهو يملك صفة لا تنكر عليه، إخلاصه للهواية؛ لا يتوقّف عن ملاحقتها حتّى يصل بها إلى النهاية، ليستريح.

في عشيّة ذلك النهار جلس تحت الكرمة المعرّشة، يسحب أنفاس النارجيلة ويتأمّل خضرة الكروم، وينسّق أفكاره ويتساءل عمّا إذا كان سيأتي...

قبل أن يودِّع مخّول همس في أذنه وصيّة: «أنا عايزك يا مخّول، بشغل ضروري... إبقَ ْتمَشَّ صوبنا».

ولم يكن بو دعّاس يجهل أنّه يطلب من العريس مطلبًا صعبًا، فالتقاليد لا تُجيز له أن يزور في الأيّام الأولى بعد الزفاف، ثمّ هناك ريّا، وانشغال البال... ولكنّها دعوة واعدة، مبطّنة بسحر الغموض، ولم يعُد يهدأ باله:

(ماذا يريد بو دعّاس؟)

شاء أن يتمرّد على نفسه، وعلى ضعفه مع الرجل، فيخرج على مسرح الدمى، ولكنّ كلمات بو دعّاس أقوى منه؛ ها هي تتجسّد، تصبح أشباحًا غريبة

تُحيط به، تُناديه ليتبعها، ولم يجد بُدًّا من قبول الدعوة، فانسلّ كالطيف، حتّى لا يشعر به إنسان.

– أهلًا بالعريس... تفضّل.

ترحيب مرح، من صميم القلب... ويقف بو دعّاس، يدعوه إلى الجلوس.

(الرجل يحبّني... لماذا أُسيء الظنّ؟) ويتلاشى قلق مخّول ويحلّ مكانه الاطمئنان، فيضع يده في يد الرجل مستسلمًا.

– كيف حال العروس يا مخّول؟

تبدّل جرس صوته، انخفض، ارتدى لباس الجدّ:

– واللّه بعدها على حالها.

يصوّب سهامه إلى نقطة الضعف، ليُخضعه من الجولة الأولى؛ ويتشجّع بو دعّاس فيرفع صوته:

– قهوة يا مرا.

أطلَّت المرأة بدرًا كاملًا؛ وكانت إطلالتها في اللحظات الأولى لوصول مخّول هلاليّة الشكل.

إنّها معجبة بأعمال زوجها؛ هي جمهوره المصفّق أبدًا، زوجها وتاج رأسها.

اقتربَت منهما على رؤوس أصابعها: «أهلًا بالعريس، شرَّفت» ثمّ عانقَته بحرارة، برهانًا على صدق التهنئة، وشكَّت في صدره غصن حبق: «وهذا زرّ ورد للعروس».

– برجوعهم بالسلامة يا خالتي أُمّ دعّاس.

ولم تقف حتّى تسمع آخر العبارة، لفّتها جدران المنزل. وتابع زوجها كلامه:

– مثل ماني شايف، الأمور معك بالعكس يا مخّول. ولَك شو القصّة يا بني؟ اعتبرني مثل بيّك وافتح لي صدرك.

– اللّه يخلّيك يا عمّ، بس المسألة مش حرزانة.

لا يزال هناك إصرار من الشاب على الاحتفاظ بالسرّ؛ فيبدّل بو دعّاس نغم صوته: «بيظهر العروس عم تعذبك؛ كلهن هيك بأوّل الطريق. القضيّة بدها شويّة حزم؛ ما ترخي الحبل من الأوّل، وإلّا بتركب وبتمدّ رجليها».

علق العصفور.

قضبان «الدبق» توزّع فوق شجيرات العلّيق، ولا يُميّزها المسكين، فيهرع ليستريح فوق غصن نضر ويطلق تغاريده، وحين يودّ التحليق تعلق به المادّة الدبقة... الفخّ. هواية شائعة يمارسها الشباب المصطافون في جورة السنديان.

أحسّ مخّول أنّه علق من يديه، ورجليه، وشعر رأسه، وكلّ محاولة للطيران ستبوء بالفشل.

– إحكِ، ما تخبّي يا مخّول؛ عمّك بو دعّاس بير غميق، يا ما سامع وقاشع، خود راحتَك يا بني.

– العلة يا عمّي ما في شي مهمّ... مرّات بفكّر هالبنت ما بتحبني... يمكن ندمِت على الزواج، علقة مش هيّنة.

– هيدا حكي ولاد صغار... هلّق المَرا صار لها حساب؟ الفرس من ورا الفارس؛ اشتدّ بترتخي، بتصير عا قد إيدك... إنتَ رجّال، بسّ بالنسبة لعمّك بو دعّاس بعدك ولد... ابن مبارح.

– بدّك للدغري، يا عمّي بو دعّاس، ما لي قلب اقساها؛ صبيّة مثل الوردة.

– حطّ بالخرج... نحنا رجال أو بسينات؟

– لا تهيننني، بيظهر ما عم تفهم عليّ.

– فهمان وزيادة؛ بصريح العبارة البنت ما خلّتك تقرّب منها، مش سامع الوشوشة؟ الهوا عم ينقل الخبر، الضيعة كلّها عم تحكي فيكم.

انتفضت يده، تحفّزت لتصفع الكهل (الوقح)؛ الحقيقة تجرح، تسيِّل دماء القلب. وامتلك روعه وأجاب بهدوء: «الأمر يخصّني وحدي... أنا وهي».

وأطلَّت أُمّ دعّاس بالقهوة، قدَّمَتها لهما وغابَت عن الأنظار.

وفي هذه اللحظة كانت الشمس تتوارى خلف الأُفق، تاركة وراءها عالمًا من السكينة لا يمزّق هدوءه سوى خوار بقرة أو نباح كلب، وحفيف أوراق الدالية كلّما لامسَتها النسائم المنهكة.

أنفاس متقطّعة، نهار آخر يحتضر بين المنعطفات والدروب، جوّ شعر، ووحدة وضياع، وثارَت قريحة بو دعّاس: «اسأل مجرّب ولا تسأل حكيم؛ صحيح نحنا ما رِحنا على مدارس، بسّ الدهر علّمنا؛ المَرا بتحبّ القوّة، وما بتعيش غير بالتنفيض».

وأضاف بصوت أشدّ انخفاضًا: «وريّا صارَت مرتَك؛ البنت عاشت عا راسها، لا أب ولا أخ، كيف بتريدها تقدّر قيمة الرجال؟»

فكرة نجحَت، وأشرق وجه بو دعّاس إشراقة زادَت الصورة وضوحًا؛ أبصرها ترتعد تحت لسع السوط، قضيب رمّان طريّ، وتثور الرجولة الطعينة في صدر مخّول فلا يعود يُبصر، وينهال عليها بالضرب وتصرخ... تخبط الباب بيديها، تدقّه برأسها، ولكنّ المفتاح في جيب مخّول، ولن تستطيع الهرب. وفي النهاية يُعييها الضرب والصراخ فتنهار، ترتمي فوق الحصير في العلّيّة، تئنُّ؛ جسدها مزنّر بأحزمة زرقاء، حمراء، متورّمة... وتموت ثورتها، فيرمي العريس قضيب الرمّان من النافذة ويقترب منها، يرفعها عن الأرض، ويطرحها على السرير؛ ولن تجرؤ على النظر إلى وجهه.

صورة منعشة، صورة الظفر والانتصار، تعوّض بو دعّاس خيبة أمل لم يستطع أن يغفرها لها، أو ينساها حتّى لو بعدت خلف البحار السبعة. وفارَت حماسته فأضاف متعمّدًا السخرية: «انسفها بدن... وتنحلّ كلّ المشاكل».

ثمّ ازدادَت حدّة سخريته: «أو بتفضّل تصير مسخرة قدّام أهل الضيعة؟».

كلام الرجل عين المنطق؛ لقد صار سخرية، لا في الغدّ، بل اليوم، بل في هذه اللحظة، ولكنّ عاطفته تردعه؛ (أُحبّها وكيف تمتدّ يدي إلى أغلى مخلوق في حياتي؟).

ويهدر الصوت في أُذنيه: «بتصير مسخرة قدّام أهل الضيعة».

السخرية حادّة... أشداق شامتة، عيون ضاحكة، تفرش الدروب والمجالس والسطوح، وتطلُّ عليه من النوافذ.

أيدٍ تمتدّ من كلّ مكان، أصابع تشير إليه، تتّحد كلّها في نغم واحد موقّع: «مسخرة». والأطفال في القرية يركضون خلفه، في أيديهم ألواح تنَك صدئة يقرعونها كالطبول، يُلاحقونه بأصواتها. والعجائز على السقائف، في الأُمسيات والصبحيّات... ووجوه الصبايا المورّدة.

وتنهمر الكلمة فوق كيانه مع رشق البرد في الشتاء، ومع وشوشات الرياح، تقرقع في أُذنيه من بين الحجارة والتراب، من جذور الشجر.

ومَن يسخر منك؟ امرأة؟ حوّاء تمرِّغ شاربيك في الوحل؟

ولكن ماذا فعلت ريّا... حبيبتي؟

وماذا تفعل أكثر؟ ضحكَت عليك، جرَّتك خلفها، وتبعتَها كالكلب. بو دعّاس على حقّ؛ وها هي تقوى عليك وتطرحك خارج العتبة؛ لست رجلًا. كيف ستواجه الناس والأيّام المقبلة؟ بماذا سترُدُّ على عشرات الأسئلة؟ وأُمّك، وأبوك، أتُخبرهم بالحقيقة؟ أتقول لهم: «تنام وحدها، وأنا أقضي الليل مكوّمًا فوق الحصير؟».

يا للذلّ والعار!

قادَته خطاه إلى البيت، إلى بطحة العرق في «النمليّة»... جرع ما فيها بلا ماء، فأحسّ نهرًا من النيران يسري في حلقه... إلى أحشائه... أدار إبريق الماء يُطفئ بقطراته ألسنة اللهيب... وتحوّل الماء إلى مادّة محترقة، إلى نار نفذَت من عينيه.

تسلّق سلّم العلّيّة والنار تغلي وتثور في عروقه؛ أبصرها أمام المرآة، تُسرّح شعرها على نور المصباح؛ بدَت لعينيه كالطيف، أقرب إلى طيفها الذي يظهر له في المنام ثمّ يختفي.

اقترب منها، وقد تخلّى عن الأفكار الخياليّة... نظراته متحجّرة، مصوّبة إليها كفوهات البنادق. غرَّز أصابعه في شعرها المتهدّل، فحاولَت أن تفلت منه، غير أنّ قبضة حديد انقضَّت عليها، تُرعد فرائصها. عيناه تُخيفانها، فيهما سكر وجنون؛ شعرَت بأنّها أمام قوّة غريبة، بأنّها مطوّقة من كلّ صوب وليس أمامها من منفذ سوى الصراخ؛ تصرخ وتطلق الفضيحة، تصرخ وتجمع حولها الجيران وتُخبر الملأ بما يحدث. وهو مصرّ على صمته، وعيناه تقذفان الحمم. خُيِّل إليها أنّه لم يعُد يُبصرها؛ كانت زجاجًا شفّافًا يعبر منه بصره ليحطّ على مشهد مرعب ينعكس في حدقتَيه. لقد اجتاز وجودها، ومكانها؛ لم تعُد بقربه، باتَت جسرًا، يعبره ليصل إلى غايته.

جرّها من شعرها، وطرحها فوق السرير، وقبل أن تُلملم أنفاسها، كانت كفّاه تلعبان فوق وجهها وجسمها... في كلّ مغرز إبرة من جسمها.

وتحقَّقَت رؤيا بو دعّاس.

اعتقد مخّول أنّ الموضوع يخصّ شخصين، ولكنّ الواقع غير ذلك. خارج الباب الموصد تجمَّعَت الأُسرة؛ أُمّه وأبوه والكبار من إخوته، تجمَّعوا بصمت، لا يستطيع الواحد أن يرفع عينيه إلى الآخر.

وظلّت أم مخّول تغلي قلقًا وتندفع إلى أسفل السلّم لتقف في الظلام، تصغي وتفرك كفّيها، أو تقرع صدرها وتُتمتم صلاة مستعجلة، ولا تدري سببًا لخوفها. وحدها أبصرت مخّول يصعد الدرج، ويطبق الباب خلفه. شعرَت بغرابة تصرّفه ولحقَته لتقول له كلمة، ولكنّها لم تجرؤ على قرع الباب فظلَّت في مكانها، تطوف حول البناء الصغير، تسمع صرخات مكبوتة وصدى صفعات تجمّد الدم في عروقها. حاولَت أن ترفع صوتها، تسألهما إذا كانا جائعين، يريدان العشاء في غرفتهما، ولكنّ الرادع الغريب ظلّ يُمسك بحنجرتها ويخنق صوتها.

وأخيرًا سمعَت صرير المفتاح، ثمّ أبصرَت ابنها يهبط السلّم، لاهثًا... صدره منتفخ وخطواته تفتِّت الحصى.

أغلق باب الجنّة، وأدار صوبها وجهه المنتصر...

حاولَت المرأة أن تُطلق زغرودة فأطبق بكفّه على فمها: «ريّا عاوزتك، طلّي عليها».

كان القنديل ينوص في الزاوية، والفتاة ممدّدة، وقد جمدَت عيناها وظلّتا مشدودتين إلى السقف.

فرض الصمت هيبته على أم مخول، فاقتربَت من كنّتها تعانقها، تُدمدم في أُذنيها كلمات لا تُفهم، وحين لم تُبدِ ريّا ردّ فعل، سألتها الحماة بصوت مسموع:

«بتتعشّي معنا، أو بجيب لك عشا على الصينيّة؟»

وكانت تتمنّى في تلك اللحظة، لو تتجمّع الجارات نساء القرية؛ أُمّ سليمان، نظميّة، بهيّة... وتطلّ هي من الباب تُزغرد وتلوّح بالشهادة.

ذهبَت محاولتها عبثًا؛ ريّا لا تردّ. غادرتها وهي تُتمتم: «ارتاحي ارتاحي يا بنتي، اللّه يرضى عليكم، اللّه يهنّيكم».

والرضى تدفّق في صدرها، فدعَت اللّه أن يصبّه مع البركة على أسرتها، وعلى الناس أجمعين.

جثّة بعد فراق الروح، باردة، بلا إرادة، تُديرها أيدي الآخرين، فلا تحتجّ ولا تنتفض؛ هكذا كانت ريّا.

هربَت روحها في ذلك المساء... انزلقَت من شقوق النافذة على متن الشعاعات الخافتة المنبعثة من قنديل الكاز... وانهارَت جدر مقاومتها؛ مات في صدرها التمرّد والمقدرة على الحسّ والانفعال.

أحلام صباها انهارَت كالجدر العتيقة، كالأبواب المخلّعة، بعدما سقطَت المسامير التي كانت تشدّها، كما تسقط الأسنان المسوّسة. ولعبَت الرياح في قصرها من جهاته الأربع، لا يردّها باب ولا جدار.

خراب، كلّ ما بناه خيالها تهدّم؛ عالمها الذهبيّ الذي تهرب إليه في لحظات الضيق، ضفّة النهر، طريق الكروم؛ كلّها باتَت خِرَبًا. وأزقّة القرية لن تعرف بعد اليوم وقع الخطى الثائرة تسير فوقها، وتنشر على جوانبها الأحلام الورديّة.

وقلبها هيكل بارد، لا تعبق فيه رائحة البخور ولا تتردّد في جوانبه الصلوات الممتزجة بالدموع.

أحسَّت بالدوار، فأغمضَت عينيها، وغرقَت في دموعها.

في شبه حلم راحَت تستعيد صورًا من الماضي؛ أبصرَت ريّا طفلة جالسة تحت شجرة سنديان، تتسلّى بمنظر النمال تسير قوافل في خطّ واحد. وتمدّ الطفلة يدها، تمسك واحدة تتسلّى بها... تقلب كفّها، والنملة تحاول الهرب فتعجز، وتنتشي الطفلة بعبثها. وليس للنملة أجنحة لتطير؛ والنملة غير «زيز» الربيع الملوّن، ذاك لا تكاد تضعه فوق كفّها، وتلسعه حرارة الشمس، حتّى يحلّق بعيدًا. ضحكَت طويلًا على النملة، ثمّ قرّبت يدها من الأرض، فانسلَّت

الحشرة، وحسبَت أنّها تخلّصت من الشرّ، ولكنّ الأذى أطبق عليها بشكل حذاء، داسَتها الصغيرة وهي تُقهقه.

كانت تعرف أنّ الحيوانات تصبُّ لعنتها على معذّبيها، فهل عاشَت لعنة النملة حتّى هذه الساعة؟

وإذا سقطَت ذرّات الملح من يدك، تلتقطها برموش عينيك في يوم القيامة. «والعيش»، مقدّس... كانت تنحني لتلتقط فتات الخبز... ترفعه إلى شفتيها وتقبّله، حتّى لا ينالها العذاب.

دروس متعدّدة حفظَتها بين الأزقّة... وتحت أشجار الزيتون، في ملاعب الطفولة. وباكرًا جدًّا تعلّمت دروس النقمة والكره؛ كانت تبني مع لداتها قبورًا للذين تكرههم، كان الأطفال يتجمّعون تحت الزيتونة العتيقة، ويحفرون القبور، ثمّ يملأونها بالأغصان والعيدان اليابسة، وكلّ عود يمثّل شخصًا من أفراد أُسرة العدوّ، وفوق القبر يزرعون غرسة خضراء؛ لعبة الحياة والموت، والانتقام.

وتمنَّت لو تعود طفلة، لتستطيع أن تبني قبورًا لمعذّبيها، تدفنهم فيها وتستريح.

جرَّت يدها بجهد بالغ لتُمسك طرف الغطاء، وتمسح به دموعها.

هي بين فكَّي الحوت، عالقة في الفخّ الكبير، عاجزة عن المقاومة... وكلّما حاولَت الهرب، تُعيدها إلى الداخل أيدٍ قاسية، وأنياب تنهش اللحم.

لو كانت تستطيع الخروج في اليوم الثالث، لتحمَّلَت أشدّ العذاب، ولكنّ القصّة لن تحدث لها، وستظلّ في بطن الحوت، في الظلمة الدامسة، طفلة صغيرة تاهَت في طريق العودة إلى البيت. كان في يدها مصباح يُنير لها الطريق، فسقط المصباح وتحطّم، واضطرَّت بعده أن تتلمّس سبيلها في الأزقّة المظلمة، وهي تعلم أنّ الأزقّة مغروسة بالحراب وأنياب الغيلان.

لن تُشرق شمسها ولن تحلم بصبح جديد، والفجر الذي انتظرَته لن يعود؛ أيّامها متّصلة بالليالي، بلا حدود. ولن يؤذيها شيء... هي بعد اليوم «نعيمة»، «نفوج»، «سعدى»، «حنّة»... هي واحدة منهنّ؛ أُنثى تسير مع القطيع، تشغل دورة الأيّام بالحمل والرضاعة، وتغمس لقمتها في طبق العائلة، وبصرها في الأرض؛ وإذا تمرَّدَت، فهناك نهاية واحدة في انتظارها.

كان عليها أن تفعل شيئًا لتُخرس الألسُن، تحبسها في معاقلها، وبأسرع وقت... وظلَّت أُمّ مخّول تنتظر حائرة وتتساءل كيف أصبحت ريّا؛ صمتها ليلة أمس أقلقَها... طردَت الفكرة بسرعة، وهي تتذكّر أمورًا أهمّ: بهيّة، أُمّ سليمان، كلام الناس. الكلام يلفُّ دارها، يرشقها كالمطر... يهطل من النوافذ والكوى.

وفوجِئَت بريّا تهبط السلّم، ثمّ تنضمّ إلى العائلة على مائدة الإفطار، إلى جانب عريسها.

هرعَت الحماة إلى غرفة جانبيّة وسجدَت تقرع صدرها وتشكر، ولم تنسَ أن تخلع المنديل عن رأسها وهي ترفع بصرها إلى فوق، وقد توارى السقف الخشبيّ الأسود... وانفتحَت في عينيها كوَّة تصلها بالقدرة العلويّة: «نحمدك يا اللّه».

وتذكَّرَت أنّها نذَرَت أن تزور الكنيسة حافية، حاملة كيلة الزيت ودزّينة شمع تُضيئها أمام أيقونة «السيّدة» – السلام على اسمها.

اغتنمَت فرصة غياب ريّا عن «العلّيّة» لتقوم بعمل آخر شغل بالها؛ كان همّها أن تنقذ سمعة ابنها وكنّتها.

صعدَت السلّم رشيقة كالقطّة، وتوجَّهَت صوب السرير، وفوق الطاولة الصغيرة أبصرَت ما كانت تبحث عنه، ثمّ عادَت إلى الدار، فإلى الباب الخارجيّ، يستولي عليها شعور النصر ويدفعها إلى مواجهة الكون بفخر.

وكانت الحركة قد دبَّت في شرايين القرية، ولمحَت الجارات في أَوج الحركة؛ واحدة على الباب، وثانية في ساحة الدار، وثالثة تُشرف على الطريق العام تراقب حركة المرور.

هذه فرصتها؛ رفعَت القميص تلوِّح به، تنشره تحت أشعّة الشمس وهي تُطلق زغرودتها: «لولوليش».

وكانت ريّا تُبصر ما يجري ولا تحتجّ، ولا تُبالي. في ليلة، بل في لحظة دفنَت تمرُّدها ورفضها وطاقتها على المقاومة، وانضمَّت إلى القطيع.

بعد الإفطار قامَت تساعد حماتها في أعمال البيت، ولمّا حاولَت المرأة أن تصرفها ابتسمَت لها وهي تُتمتم: «ما عدت غريبة... صرت من أهل البيت»...

وكانت أم مخّول لا تصدّق ما يحدث، بل تعيش في ظلال أُعجوبة آمنَت بأنّها حصلت استجابة لصلاتها الحارّة.

لم تفُت الحركة مخّول، وذكَّرته بنصائح بو دعاس.

(الماكر! إنّه يعرف كلّ شيء.)

سوّى شعره، وشكَّ خصلة حبق في عروة الزرّ، ثم اتّجه صوب ساحة الضيعة؛ أنفه في الهواء وخطواته تفتِّت الصخر.

– كيف العروسان يا أمّ مخّول؟

أُمّ سليمان تبطّن سؤالها بألف معنى... التقَتها مصادفة عند عين الماء، ولكنّ «المصادفة» كانت من إخراج أُمّ سليمان؛ كانت منهمكة في إعداد الطعام حين أبصرَت أمّ مخّول تحمل جرَّتها الفارغة، وأفرغَت هي جرَّتها في برميل الحديقة، ثمّ لحقَت بها.

– بألف خير يا أمّ سليمان، عقبى لفرحتهم.

– والعروس، عساها قدّ الخاطر.

– وزيادة؛ ريّا، مثل الغنمة القرعة، نعمة ما منستاهلها.

كانت تأمل أن تجد ثغرة ليِّنة، نقطة ضعف فتتابع الحديث، ولكنّ كلام أمّ مخّول لا يترك الشكّ؛ لقد اصطلحَت الأمور بين العروسين.

امتلأَت الجرّة، فرفعَتها إلى كتفها تاركة خلفها أصداء عبارة معترضة: «سلّمي عالعرسان يا أمّ مخّول».

ولم تكن جرّة الماء ما دفع أمّ مخّول إلى عين الماء في تلك اللحظة، كانت تعرف أنّ المكان خير مركز للإذاعة السريعة.

قرقرة نارجيلة بو دعّاس تصل إلى حدّ السحاب؛ وفي تلك العشيّة تجمَّع الصحب فوق سقيفته يقطعون الوقت بالكلام، وبحث المشاغل العامّة. وكان

الرجل يفتُل شاربَيه ويُرسل إلى مخّول نظرات إله رضِيَ عن خلقه؛ فهم ما حدث من عينَي مخّول، ورنّة صوته الواثقة المعتدّة، ومن خوضه غمار الكلام بلا سهو أو صمت مفاجئ. في تلك العشيّة، كان مخّول حاضرًا مع الجماعة، متفاعلًا معها، متحرّرًا من أغلال قلقه.

وكانت زيارته لـ«بو دعّاس» للشكر والإقرار بالفضل.

– لا شكر على الواجب يا بني.

بو دعّاس لا يريد أن يعود إلى الموضوع، انتهى منه، ضمّه إلى طبقات الماضي في صندوق الحفظ، للذكرى؛ وعاد يُمسك بالخيوط، يُحرّكها، يشدّها، أو يُرخيها.

كانت بين أصابعه مجموعة من الدمى الجديدة.

حلّ صوم السيّدة مع حلول آب؛ صوم قاسٍ ينقطع فيه الناس عن الطعام الدسم، عن معطيات الحيوان كلّها، ويبلغ التقشّف بالبعض حدًّا أبعد، فيصومون عن الزيت.

والصوم للنساء.

هكذا يقول سكّان الجورة، وكأنّ المرأة التي تحمل بذرة الحياة، وتحضنها، هي التي تحمل بذور الخطيئة، تُربّيها في صدرها، وتُحسّ، من حين إلى آخر، بالحاجة إلى التعلّق بالإيمان، للكفّارة، لنيل الغفران.

وكانت ريّا، في سنوات مضَت، تشترك في الصوم؛ تعدّه ضربًا من التلوين، يُحطّم رتابة حياتها، يغسل نفسها من الخطايا، يُحوِّل جسدها إلى إناء طاهر، نقيّ، يستأهل الاقتراب من أيقونة العذراء. وكانت الفتاة تشارك النسوة في السجود أمام الأيقونة والترنيم لمجدها وطهرها.

السيّدة... شفيعة العذارى.

طالما حملَت إليها، مع فتيات القرية، الشموع والأزهار وزيَّنَت أيقونتها بشرائط المخمل والحرير. ولكَم طال سجودها وهي تصلّي، تغتسل بدموعها. كانت تجد عزاءً كبيرًا في الاقتراب من الأيقونة الكبيرة، ترفع إليها بصرها المغشّى بالدموع، فتشعر بأنّ السيّدة تتحرّك، وتنحني فوقها، وفي بعض الأحيان تمدّ يدها لتمسح دمعاتها وتردَّ خصلات شعرها المبعثرة فوق الجبين والعينين.

«ما لي غيرك يا سيّدتي، يا أمّ الطفل، يا نقيّة.»

كانت تزور الكنيسة كلّ يوم، ترافق أُمّها، لتساعدها في تنظيف الأرض، وحين تلج العتبة، تُحسّ أنّ المكنسة ترتعش في يديها، ثمّ تسقط؛ لا يجوز أن

تُثير الغبار في حضرة القدّيسين. وكان إيمانها يدفعها إلى كنس الأرض بجفون عينيها، ومسحها بالدموع الصافية.

في صوم السيّدة، تكثر النذور؛ إنّه يحلُّ مع موسم الخير، حين يستطيع سكّان الجورة تسديد ديونهم. وبعضهم ينذر النوم داخل الكنيسة، تحت حراسة السيّدة، عليها السلام.

ولم تنسَ ريّا ليلة نامَت في الكنيسة، ليلة واحدة؛ تجمّع الناس على ضوء الشموع الخافت، وافترشَت النساء مع أطفالهنّ أرض المعبد، وبدَأنَ بترديد «المدائح» بأصوات تشفّ عن الحزن والشوق. أصوات لم يصقلها فنّ، ولكنّها تنبعث من ينبوع الإيمان وتتآلف في جوّ من الخشوع والرهبة فتستغني عن كلّ فنّ.

كانت الترانيم تُرفرف في جوّ كئيب، تتراقص فيه الأخيلة على أنوار شموع نحيلة، تظلّ عاجزة عن تبديد الظلام، وكأنّ أيقونات القدّيسين المعلّقة فوق الجدران تتجنّح وتحلّق فوق رؤوس المؤمنين، تشاركهم الترانيم.

كانت ريّا تركع قرب أُمّها، طفلة في سنتها التاسعة. وكانت تُحسُّ أنّه لا يحق لها أن ترفع بصرها إلى الوجوه القدّيسة. ويلحُّ عليها شوقها لتزيد معرفتها بتلك الوجوه، ويتخبّط الشوق في صدرها يتصارع مع التقاليد، وتطفو آثاره فقاقيع حيرة في عينيها البريئتين.

قيل لها إنّ الملائكة والقدّيسين يسهرون على حراسة مَن ينام في الكنيسة، ويشفون المرضى. وظلّ قلبها يدقّ بقلق، كانت تخشى إن هي أغمضَت عينيها، أن يفوتها المشهد الأخّاذ، حين تتجسّد الوجوه الفنّيّة في الأيقونات وتنزل تتمشّى بين الأجسام البشريّة المسطّحة على بلاط الكنيسة. ولا تذكر كيف نامَت تلك الليلة؛ غلبها النعاس غلبًا، واستيقظَت مع الفجر على زعيق طفل جائع. كانت الشموع مطفأة وخيوط الفجر تنسلّ بحذر من النوافذ المزجّجة، وتحطّ فوق الأيقونات، تؤكّد حضور أصحابها وسهرهم كلّ لحظة، ولم تعُد تطلب إلى أُمّها أن تصحبها للنوم في الكنيسة؛ ليلة واحدة تكفي. ولم تكن تدري سببًا لهذا الرفض. والآن، يُخيّل إليها أنّها تفهم، كانت تشعر بأنّ الخطيئة تعيش في صدرها كلّ لحظة، وهناك، أمامهم، تتجسّد خطيئتها وتتعرّى. هناك، تصبح بقرب مَن يفهمها، ولا يعود يمكنها التستُّر بالثياب.

جلسَت تستعرض هذه الذكريات من بعيد، ومن دون حسّ أو انفعال. كان أوّل أيّام الصوم؛ وطلبَت إليها حماتها ألّا تصوم: «الصوم مش للعرايس... اتركيه للعجائز، لاحقة تصومي لمّا تكبري».

كلمات المرأة تنفذ إلى سمعها، جوفاء.

واستمرَّت تلتهم الخبز المغمّس باللبنة والزيتون... وتراقب فم مخّول يتحرّك؛ ينفتح وينغلق بسرعة وقابليّة عظيمتَين.

ولم تكن الحماة تنتظر منها جوابًا...

ولم تكن هي تفقه معنى تلك العبارة.

صومها فيما مضى، كان الفواصل التي تحدُّ بين الأيّام، تحطّم رتابتها. واليوم لم يعُد في حياتها رتابة أو ضجر، لم يعُد فيها شيء؛ وجودها مثل قشّة يابسة يقذفها التيّار، وبالأمس كان الغصن النضر، وامتدَّت يد قويّة إلى الغصن تحطّمه وتنزعه من شجرته، تقطع العروق التي تصله بالحياة، وتدفعه مع المجرى.

شبع مخّول، فمسح فمه بباطن كفّه، ثمّ مدّ يده يُريحها فوق كتفها مداعبًا: «بتروحي مشوار على كرم الوادي؟».

– مثل ما تريد.

انتعلَت حذاءً قديمًا وسارَت بقربه؛ القشّة اليابسة يحملها التيّار. كان الجوّ رائعًا، الهدوء يخيّم على الدروب والحقول، والنسمات المرطّبة بالندى تهبُّ فوق وجهها، وتتطفّل على شعرها وثوبها مداعبة بريئة. وظلَّت تجرِّر قدميها؛ رأسها في الأرض، وعيناها نور تائه... لا يصدمه حدّ... تقطَّعَت أسلاك كانت تصل وجودها بالتراب، بالأرض، بالشجر والهواء والصخور وزقزقة العصافير، وأصبح وجودها أعمى، أصمّ، لا يعنيه شيء من كلّ حياة تدبّ. وكان هو إلى جانبها، تشعر بحضوره الجسديّ وتسمع خطاه فلا تذكِّرها بشيء ولا توقظ في حسّها احتجاجًا ولا نقمة أو رضى؛ هو هناك، وهي هنا، وكلّ منهما جسم مستدير بلا أطراف ولا نتوء، جسم مطّاط تضربه فيقفز عن الأرض، وكأنّه لم يصطدم بها.

قطف عنقودًا من أجوَد الدوالي وقدّمه إليها، وقد باتَ صمتها يزعجه، وخضوعها يُضايقه؛ لم يَعتد منها ذلك الخضوع كلّه، بدَت له شخصًا آخر لا يرقص ولا يمرح أو يتحدّى.

ولم يشأ أن يُقلق رأسه بهذا التعقيد؛ فعاد يوقظها وهو يُعطيها عنقود العنب: «مثل هالأيّام بيكون عندنا ولد إن شاء اللّه».

شعر أمامها بمثل شعور طفل أمام بحيرة هادئة؛ كلّما أغرز بصره في المياه، ازدادَت هدوءًا حتّى بات يشكّ في سيلان الماء، فحمل حجرًا وضرب به الصفحة ليرى، هل ترسل الأمواج!

ارتدَّ الحجر عن السطح المتحجّر واستقرّ في عينيه، فأزاحهما عن وجهها. وسمعها تُتمتم بلا مبالاة: «إن شاء اللّه».

وتابعَت التهام الحبّات الشهيّة، من دون أن تتوقّف لتتمتّع بطعمها أو منظرها. ولمّا فرغَت، طرحَت النفاية في ساقية قريبة وجلسَت فوق الصخرة، تنكُت الأرض بعود يابس.

حمِيَت الشمس وارتفع صدى لهاثه بقربها، ونال منها التعب فراحَت تجرُّ رجليها جرًّا ولا تُبالي، وتقلق العصافير فتتطاير على جانبَي الطريق ولا تُعيرها انتباهًا. وكانت الفتاة الأخرى قبل أيّام، تُهينِم مع العصافير، تحلّق معها في كلّ رفّة جناح، تسافر عيناها تشيّعان الأسراب الهاربة حتّى يغيّبها الوادي أو يحتضنها جناح شجرة.

عرَّج مخّول على النبع فسارَت خلفه كالظلّ، مرّ طيف الفتاة الأخرى في عينيها مرورًا خاطفًا؛ أبصرَتها ممدّدة على ضفّة الينبوع تداعب مياهه العذبة بيديها، ومقابلها جلس صبيّ صغير، رثّ الثياب قلق النظرات، يتأمّل وجهها ويسرد لها حكاياته ويضحك، فيرتقي صدى الضحكات بين أشجار الدفلى والعلّيق والصفصاف. وينهض الفتى، فيقترب من شجرة الدفلى يقطف لها زهرة ورديّة اللون يشكلها في شعرها، وتعابثه: «عم تزيّني بسمّ الموت يا منحوس؟... الهيأة بدّك تخلص من ريّا».

وينكّس رأسه: «زهرة جميلة، أجمل زهرة في الوادي؛ فكَّرت أنّها تُشبهك يا ريّا».

– زهرة الدفلى تشبهني، مظهرها جميل وطعمها مرّ... وهي سامّة، تجلب الموت، ناجي أخبرني، أنا زهرة دفلى يا ناجي؟

– أنتِ وردة جوريّة، ولكن من أين نجلب لك الورد؟

وتنهض الفتاة فتقطف أغصان العلّيق، تحبك منها إكليلًا تضعه فوق رأسه: «وهذا لرأسك الصغير؛ وكنتُ أفضّل لك إكليل غار، ولكن من أين نجلب لك الغار؟».

– إكليل الشوك يشرّفني، وضعوه فوق رأس المصلوب.

وتُجيبُه في قلبها: «وأنت المصلوب في عصرنا يا ناجي؛ جرّدوك من ثيابك، من جلدك، من أيّامك الحلوة، وطردوك بين الجرود حافي القدمين، عاري الجسم، بلا أهل ولا مأوى. كم يُناسبك إكليل الشوك يا ناجي!».

ويُمسك الفتى الأغصان الشائكة يطرحها في الحقل المجاور.

كانت الصورة واضحة، وكأنّها تبصرها أمامها، وكأنّ أصواتهما المرحة صراخ ظلّ عالقًا في الجوّ... ثمّ راحَت الصورة تبتعد وتتوارى، وكأنّها لا تخصّها.

اقتربَت من النبع تعبُّ من مائه حتّى ارتوَت ثمّ نهضَت وتبعَت ظلّ زوجها.

أقفرَت بيادر القمح، باتَت ملعبًا للرياح تهبُّ عليها، تذرّي ما تبقّى من القش اليابس والتبن، تحمله فوق سطوح القرية، تكثّف طبقات الغبار، تزكم به أُنوف السكّان وتزيد حلوقهم جفافًا.

باب الصيف واسع.

وبابه مشرع من كلّ جانب؛ وفي الجورة يعيش الناس كلّ لحظات الموسم، وكانوا منهمكين، طوال أيّام الصوم، بجمع المؤونة وخزنها.

بدَت القرية في ذلك الصباح، أشبه بخليّة نحل فتيّة.

أمام كلّ منزل تكوَّمَت النساء والرجال يعملون في تصويل القمح وسلقه ونشره فوق السطوح للشمس، تقبّل كلّ حبّة، وتترك طعم قبلاتها بركة لأيّام الشتاء.

كانت ريّا تتربّع أمام «لَكَنِ» النحاس؛ يداها منهمكتان في دغدغة الحبّات الذهبيّة، وعيناها ترافقان المشهد بلا مبالاة، وبقربها جلسَت أمّ مخول، توزّع الأوامر على ورشة العمل: «كثرة الأيدي في الحصاد غنيمة».

وكسبت العائلة في ذلك الصيف يدين تعملان، وتدفّق الخير على البيت، وزاد عن حاجة المؤونة؛ كانت هناك أكياس معدّة للبيع:

«شو رأيك يا بو مخّول، حمّل الأكياس وانزل للسوق، أو بتروح أنتَ يا مخّول، يمكن أن تحتاج لأغراض يا بني.»

تلك لحظات العزّ عند المرأة؛ انتهى الرجال من العمل في الحقول وحملوا غلّاتهم يصبّونها بين يديها، وهي الآن تقوم بدورها الرئيسي: توزيع الأعمال.

لم تعُد ترافق الرجال إلى الحقل؛ مهامّ البيت كثيرة، ولكنّها ظلَّت تُمسك بأيديهم، لا يطمئن لها بال ما لم تطَّلع على تفاصيل العمل. وحين لا يشبعون

نهمها إلى أخبار الأرض، تخطف رِجلها وتلحق بهم إلى الحقول، تحمل الزاد والماء، وتمدُّ يدها، تُبارك الأرض، تنقّي الحصى من بين الأثلام، أو تجمع السنابل خلف الحصّادين؛ تلك أعمال تغمرها بالفرحة والاكتفاء.

وكان بو مخّول يؤنّبها: «شغلك بالبيت»... ويبقى تأنيبه أقرب إلى الدعابة، فهي زوجته وأُمّ أولاده وعونه على الدهر.

وأمّ مخّول تعلم أنّ عمل البيت يكفيها؛ العائلة كبيرة، ولكنّ الأرض تحتاج إليها. وهي تشتاق الأرض وتفتقدها في كلّ فعل، وكأنّها تفتقد ولدًا عزيزًا. تذكر جولاتها في سهل «اللبوة»، سنة بعد سنة، أوّل مرّة هربَت إليها كانت عروسًا مثل ريّا الآن. مضى زوجها إلى الحقل، ولم تستطع البقاء وحدها فلحقَت به، ولم يُعجبه تصرُّفها فطلب إليها أن تعود إلى البيت: «شو بتقول الناس؟ بعدك عروس».

وضحكَت بلا مبالاة؛ ماذا يقول الناس؟ مكانها حيث هو. وظلَّت واقفة، تتأمّله يروح ويجيء مع محراثه، ويترك خلفه الأثلام ضاحكة مستقيمة، وتغور قدماه في الأثلام الرطبة، حتّى قلب الأرض، وغمام الخريف يحوِّم فوق رأسه كالطيور الرماديّة.

واحدة من مجموعة صور جميلة عالقة في الذاكرة.

إلى جانبه كدحَت طوال حياتها حتّى كانت هذه العائلة المباركة، ولم يعُقها الحمل والأطفال عن مرافقته. إنّها تفاخر فتيات هذا الجيل بما قامَت به من أعمال: «في شهري التاسع كنتُ أسند أحمال القشّ مع بو مخّول».

واليوم تبدَّلَت الأحوال؛ بنات هذا الجيل غير بنات الأمس.

الأفكار تكرّ، وفي بالها ريّا؛ كانت تراقبها من طرف عينها فيبدو لها عملها لونًا من العبث لا يحمل بذرة الاندفاع وحماسة الفتوّة.

لا، تبدَّلَت الأيّام؛ حتّى الرجال اليوم غير ما كانوا عليه بالأمس. وهي لا تعني مخّول ابنها: «رجالو قلال». في بالها الشباب المائعون تبصرهم صبحًا ومساءً، يذرعون أزقّة القرية، ولا همّ لهم سوى الثرثرة وترجيع الأغاني الغريبة.

وكانت تصلّي كلّ مساء وتدعو بو رمح، شفيع كنيسة القرية، ليردّ ذلك الشرّ عن بيتها.

ظلّت تدغدغ ذكرياتها وهي جالسة القرفصاء أمام عرمة القمح، وقد انسدل ثوبها حولها، حتّى لامس الأرض، وظلّ بالها منشغلًا بصمت ريّا.

وكان مخّول مقابلها في طرف الدار، يرفع كيس القمح بين ساعدَيه وكأنّه يحمل ريشة عصفور (بارك اللّه بهمّة الشباب)، وشعرت باعتزاز ينفخ صدرها (بهذين الساعدين روّضها). أجل، لولا مخّول ما تروَّضَت الفتاة. وماذا عملَت ريّا؟... أقوال الناس ظالمة؛ لا، فقد أحسن ابنها الاختيار، هذه الفتوّة والجمال، وذلك الصدر! صدر كهذا يقوى على تربية الرجال!

بينها وبين نفسها سامحَته على هفوة ارتكبها حين لم يطلب إليها، هي أُمّه، أن تخطب له الفتاة جريًا على عادة أهل القرية، ولكنّه خلّصها من مأزق حرج، خلّصها من سلفتها سُمَيّه؛ كانت تلاحقه منذ الطفولة لتزوّجه ابنتها هيلانه، فلا تترك مناسبة إلّا وتذكر بها جمال الفتاة. ولم يكن لدى أُمّ مخّول ما يدفعها إلى الاعتراض على الفتاة لولا أمّها (نجّنا يا ربّ، لا يسلم من لسانها الطير الطائر). همّ سلفتها أن تتسلّى بالناس وتنبش أخبارهم. وهي امرأة مستورة، تخاف اللّه ولا تفكّر إلّا بعائلتها، ومن الطبيعيّ أن تسير الفتاة على خطى الوالدة.

أُمّ مخّول راضية عمّا آلَت إليه الأمور، وأقنعَت زوجها بأن يتخلّى عن ثورته في وجه ابنه، حين علم بما فعله مخّول: «كلّو من تدبيرك؛ كيف لي عين واجه بيت خيّي؟».

«لا أنا دبَّرت ولا معي خبر؛ ابنك حبّ البنت وتزوّجها؛ أيّامهم غير أيامنا.»

استطاعَت بهدوئها، وأسلوبها الذي صقلَته الأيّام، أن تنتزع الثورة من صدره فيخرج لاستقبال ابنه وعروسه، وكأنّ كلّ ما جرى كان طوع إرادته.

وغضب أهل هيلانه، ولا يزالون. وفي سرّها، هنَّأَت أمّ مخّول نفسها على هذه القطيعة، وعلى كسر شوكة سلفتها... (وهل انكسرَت؟ تلك اللعينة، تعرف كيف تحوّل الانكسار إلى نصر أكيد.)

صرفَت الفكرة من رأسها؛ لماذا تستبق الأحداث؟ الأيّام المقبلة تضحك لها، والفرحة تعمّ دارها، والشباب من حولها يدفّئون صقيع أيّامها بوهج فتوّتهم.

أعادَتها فرحة مخّول إلى أيّام صباها، عادَت ترى نفسها مكان ريّا عروسًا في أيّام فرحتها الأولى.

وأيقظها من شرودها صوت بو مخّول يلحّ على ابنه: «ما ترفع الكيس وحدك».

– وليش ربّيت هالسواعد...

– أبوك، بعدو شاب... وسّع من الدرب.

– بعدو شيخ الشباب؛ هات زندَك هات.

مدّ ساعدًا مفتولًا، نفرَت عضلاته وابيضَّت أكثر الشعرات فيه، وامتدَّت العروق أقنية صلبة، عركَت الأيّام وخرجَت منتصرة.

وضع يده في يد ابنه، وقد أشرقَت فوق شفتيه بسمة رضى، لم تلبث أن أضاءَت ثنايا وجهه، وغارَت حتّى أعماق عينيه.

وكان الجمهور امرأتين: واحدة قطعَت شوطًا بعيدًا من العمر، مغتبطة، راضية بالمحصول. والثانية تقف في أوّل الطريق، في قدميها حذاء ضيّق يشلّ حركتها ويعطّل عاطفتها.

لم يكن في استطاعة ريّا أن تُبصر أو تسمع سوى همس حبّات القمح المتقلّبة بين يديها.

عيد السيّدة، عيد الفرحة والخلاص، مهرجان العذارى والشموع البيضاء؛ والأعياد في جورة السنديان تنسجم مع الطبيعة، مع دورة الفصول... هي علامات الوقف أو بدء المواسم.

وكانت نسمات ذلك الصباح تهبّ من جهة الكروم حاملة عبير القش اليابس ونكهة العنب.

وامتدَّت يد خفيّة تمسح وجوه الناس بالراحة والبشر، فاطمأنّوا إلى امتلاء الأهراء، وتدفّق الخيرات، يفون منها دينهم ونذور السيّدة.

وجهها المعذّب تألفه عيونهم، وجه تلفّه مسحة كآبة، ويداها تقطران رقّة وحنانًا، تضمّان الطفل وكأنّهما تُدركان سلفًا ما ينتظره في الغد.

السيّدة، شفيعة العذارى، أنيسة العجائز، ومخلّصة الأُمّهات.

وأطلَّت الشمس، فانهزمَت البرودة الخفيفة أمام لفح اللهب، وراح الجرس يقرع، يُنادي، يُعلن بَدء القدّاس.

وإذا حملَت الفتاة العذراء نذرها، وسارَت حافية لتسجُد أمام أيقونة السيّدة، تحقّقت أحلامها كلّها.

في ذلك النهار تنفتح أبواب السماء؛ وتقف هي، أمام عرش المحبّة، تتوسّط لبنات جنسها، وترتفع الأدعية والابتهالات، حارّة، مؤمنة، وتقرع الصدور أمام أيقونتها الملوّنة، المذهّبة، المغمّسة بعبق البخور.

«يا سيّدة، طال غياب ابني، أرجعيه إليّ بالسلامة.»

«يا سيّدة، حنِّني قلب بو مالك حتّى يبعث لنا قرشَين.»

«يا طاهرة، يا نقيّة، لا تتخلَّي عن بنتي، زهيّة، بتعرفي زهيّة، صرت خايفة تجنّ، أقنعيها حتّى ترضى تتزوّج ابن بو نادر.»

وادي الدموع...

وتذوب العواطف، فتطفر دمعات حارّة، صادقة التعبير، وترتفع إليها العيون الطافحة بالدمع، وترتعش عضلات الوجه، فيُخالط الحزنَ شيء من التفهّم وكأنّها تسمع، وكأنّها تستجيب، فتمدُّ أناملها الرقيقة، تمسح الدموع وتغسل الهموم.

ثمّ تعود أيقونتها فتغرق في فيض من أنوار الشموع البيضاء؛ تُرفرف حولها أنغام ملائكيّة، وتتسربل بوشاح من سحر البخور.

في ذلك الصباح، كان سرب من العجائز يقترب من باب الكنيسة؛ نساء متشابهات في اللون والشكل واللباس، القامات المحنيّة، الوجوه المغضّنة، العيون المرهقة، الشفاه الراجفة والعصيّ.

الجرس يقرع؛ يُنادي المؤمنين، يذكّرهم بالمناسبة السعيدة، ويترنّح صداه في الوادي فتلتقطه آذان صِبية سارحين في الأزقّة أو بين الكروم، وتردّده حناجر الصبايا، رفيقات ريّا.

أقفلَت ريّا نافذتها كي تصدّ النداء، فلا يدخل بيتها أو يطرق صدرها، وحتّى لا تعود تسمع صوت أمّ مخّول يُزقزق تحت النافذة، يدعو أهل الدار إلى القدّاس.

ظلّ الصوت يخترق الحاجز الخشبيّ، موقّعًا على رنين الجرس.

وقبل ذلك، كانت الأيدي الخفّيّة قد امتدَّت من كلّ صوب، من حول ريّا، لتوصد النوافذ والأبواب، وتحرمها أشعّة الشمس والهواء النقيّ.

أيدٍ كثيرة، أيدٍ غير مرئيّة، ومعها يد ريّا نفسها، أوصدَت الأبواب والنوافذ وأطبقَت على فمها.

صرخَت مرّة واحدة، ولكنّ الصوت اندحر وتوارى بين ذرّات التراب. ولم يكن هناك مَن يشرّع أبواب المجد في وجهها، ولم تكن هناك يد تدعوها إلى الغرف من بحر الحياة الكبير، ولا عربة سريعة تحملها بعيدًا، ولا رجع المجهول الذي حدّق إلى وجهها بشوق، وخلّف في صدرها الحسرة.

سارَت تقطع الدروب وحدها، ولم يكن في قدمَيها حذاء. سالَت الدماء من شقوق القدمين، وعلقَت منها قطرات فوق حجارة الطريق، مثل نثرات الصوف يخلّفها قطيع الغنم بين الأشواك.

للأغنام صوف، جلدها الخارجيّ، تنزعه، يجزّ وتتابع الحياة. وإذا سلخَت ريّا جلدها فبماذا تشدُّ عظامها؟

وذرّة التراب الصغيرة بين أزقّة جورة السنديان، مَن يدري بها؟

– يا ريّا البِسي فستانك الأبيض وانزلي.

ولم يعُد الثوب «أبيض»، إنّه ملطّخ، ملوّث ببقع سمراء، سوداء، صفراء... وفي جوانبه علقَت آثار وحول.

– يا بنتي، بعدني ناطرة، دقّ ثالث جرس.

وما همّ لو قرعَت أجراس الكون؛ ارتفع الجدار، ارتفع، وازدادَت كثافته، ها هو يسدّ أُذنيها، يطبق على عينيها. أنفاسها تنقطع ويلفّها دوار وتحسّ أمعاءها تتمزّق بفعل السمّ الذي جرعته.

«يا عذرا.»

أسندَت ثقلها فوق الكرسيّ.

اليوم عيد السيّدة، العذارى سيحملن الشموع إليها؛ «يا سيّدة عونك».

حاولت أن تستحضر صورتها، فعجزَت. أبصرَت الوجه الرحوم يتطلّع إليها بغضب، وقد كسَته خطوط الإرهاق والشكّ والتأنيب. الدوار يعود، ويغيب العالم في ضباب يزحف إليها، يلفّها... ويطوّق عنقها: «شو عملت؟ يا عذرا انجديني».

لا، ما هذه يد العذراء. هربَت منها.

أبصرَت وجهها يركض بين الكروم، يجري خلف صبيّة تائهة، تطارد العصافير وتلتقط زهور البرّ: «هأنذي يا عذرا.»

جرجرَت قدمَيها صوب النافذة وشرَّعَت دفَّتَيها... فتغلغلَت شعاعات الشمس تغسل وجهها وشعرها.

الشمس تشرق على الآخرين... أبصرَتهم عبر ضباب يغشّي عينيها، يفدون زرافات لحضور القدّاس، وقد ارتدوا للمناسبة أزهى ما في صناديقهم من ثياب.

الأُمّهات يحضنّ أطفالهنّ، والصبايا يحملنَ الشموع، وبينهنّ يسير الرجال بصمت وخشوع.

لمحَت بو دعّاس بين الرجال... ولم تفُتها حركاته التمثيليّة؛ لا بُدّ من أن يكون هناك دور جديد ينغمس فيه، يمثّله في حياة غيرها. وتراءَت لها في طرف

الزقاق جمهرة من الشباب وقد تجمَّعوا حول شخص تعرفه جيّدًا: ناجي!

لا... هذا طيف ناجي، يمزِّق الغشاوة الضبابيّة، ليصل إليها واضحًا كأيّام الصحو...

ولكنّها تراه، تكاد تسمع صوته... هو... هو... عاد إذن إلى الجورة ولم يسأل عنها.

(لماذا تنكرني يا ناجي؟ هل تنكرني أنتَ أيضًا؟)

تلفَّت وجهه إلى ناحيَتِها وقد لاح فوق تقاطيعه طيف بسمة ساخرة... حاولَت أن تصرخ، تُناديه باسمه، فخانَها الصوت، وتلاشى قبل أن يصل إلى حدود الشفتين.

زمَّت شفتَيها، وشدَّت يديها حول خصرها، لتسكِّن الألم... سكاكين حادّة تقطّع أحشاءها، وتمزّق غشاء الوعي، لتنقلها إلى غيبوبة أبديّة.

«خلّصيني يا عذرا.»

تحوَّلَت الغرفة إلى غمامة طوّقتها... ارتفعَت هي فوق الغمامة وقد تلاشى ثقلها، وباتَت أخفّ من نسمة صيف.

لم تُحسّ بالألم وجسمها ينهار، ويهوي فوق أرض الغرفة... انقطع الحبل الأخير، وهدأ كلّ شيء.

كانت تلك أوّل مناسبة تظهر فيها أمّ مخّول مع الكنّة الجديدة، واستعدَّت لها قبل يومين؛ فخبزَت القدّاس وأخرجَت ثوب الأعياد من الخزانة. وضايقَها الصمت والانتظار، ولم تستطع أن تردع شفتَيها عن لوم فتيات هذه الأيّام وأطوارهنّ الغريبة: «كنّا نلبس بدقيقة زمان».

ثمّ عادَت تستدرك: «ولكن، حقّها، إنّها عروس».

ومخّول تأخّر في الكروم؛ ذهب يقطف سلّة عنب يحملها إلى الكنيسة، ليُباركها بونا جريس. استنجدَت بأحد أولادها: «اطلع عالعلّيّة، ونادِ ريّا يا بني».

تسلّق الصبيّ درجات السلّم بخفّة، بينما وقفَت أُمّه ترقبه بنفاد صبر.

وقبل أن يعود إليها سمعَت صرخة مدوّية اهتزَّت لها أركان الدار، ثمّ أطلّ وجهه المذعور من فتحة الباب: «أمّي... أمّي... عجّلي اطلعي؛ ريّا ما بتجاوب».

لحظة واحدة تقلب وجه الأشياء؛ وكانت لحظة قاسية... حوَّلَت جوّ العيد والمرح إلى مأساة! صبغَت أجنحة العصافير الملوّنة، جعلَتها غربانًا تنعى، وتخبط بأجنحتها وجه التربة، فتثير الغبار والأسى.

تجمَّعَت النساء في دار مخّول، مثل الكواسر حول جيفة، ولم يكن في عيونهنّ حزن أو أسى.

كان الذعر يحفر أخاديد عميقة في غضون الوجوه الرماديّة، ينغرز في الأعين، فيزيدها قلقًا وزوغانًا. وترتفع الأيدي إلى فوق، وكأنّها تردّ قوّة طارئة، عتيّة، هبطَت من ثقب جدار القدر:

«يا ويلنا من ساعات الغضب!...»

رفعَت نظميّة عقيرتها بالصراخ والعويل، واقتدَت بها الأخريات، فحميَ الجوّ وازداد ثقلًا، وتراكمَت ذرّات الغبار... وظلّ الناس يتوافدون، حتى فرغَت القرية من سكّانها وتجمّعوا حول الدار، وغصّ بهم الزقاق الضيّق، وكان العريس آخر الوافدين.

تلقّاه بو دعّاس وجرّه إلى حيث يصطفّ الرجال، وهو يُتمتم في أُذنه كلمات التعزية، ويدعوه ليتصبّر، ويظهر بمظهر الرجال فلا ينهار تحت وطأة المأساة.

انقاد الشاب في الخطوة الأولى، ولكنّه لم يلبث أن انتفض كالوحش الجريح، وركض باتّجاه العشّ الزوجيّ؛ وأفسحَت النساء الطريق، وانصبَّت الأعيُن عليه، عقدَت حوله حلقة محكمة، وراحَت تحصي حركاته وانتفاض عروقه.

علق في فم مخّول سؤال واحد: «شو صار؟ شو صار؟ دخيلكن خبروني».

والخبر ظلّ طيّ الكتمان، بين دفّتَي الصدر الهامد.

لم تكن ريّا في حياتها أجمل منها في تلك اللحظات؛ بدَت عروسًا مجلوّة، وقد عادَت إلى وجهها السكينة والهدوء، ومسحَت وجنتَيها أصابع خفيّة غرسَت فيهما الطمأنينة مكان التمرّد والتحدّي.

كان فمها مطبقًا على وردة حمراء، زادَت تأكيد الشحوب، وجمال اللوحة الفنية.

وإذا كانت سنوات حياتها سلسلة من الإقلاق الدائم، فإنّ موتها أعاد إلى سطح الحياة كلّ ما اختفى وتوارى خلف الأقنعة الزائفة. ولم تستطع نظميّة أن تركّز أفكارها، كما كان من شأنها أن تفعل في المناسبات... اجتهدَت كثيرًا في البحث عن قصيدة نواح، تربط بها أطراف الحبال المتقطّعة وتساعد في تسيير مركبة الحزن في طريق معبَّد... وبدل أن يُلهمها الوجه المسافر أفكارًا جديدة، أمعَن في إغراقها في بحر غريب! فإذا بها تبحث عن أجوبة تردّ بها على التُهم الموجّهة إليها... إلى الجميع. كان الجوّ ممتلئًا بأرواح غريبة تتساءل، تُحاسب، تتحدّى، تشدُّ الآخرين من شعرهم، من أعينهم، وألسنتهم، وأصابعهم، تضربهم على أعناقهم... ويعجزون عن طردها أو مواجهتها.

تلفَّتَت خطيبة الضيعة التفاتة ذعر، ورأَت في الأعيُن المحيطة بها ما تحسُّه في عينيها وفي صلب شراييها.

«حيف موت الصبايا... حيف.»

صبَّت كلماتها في الجوّ، وانتظرَت... وبقيَت الكلمات تطنُّ في الهواء، تصدمها أصداء نحاسيّة الرنين آتية من عالم الرهبة.

«موت العرايس غبينة.»

«ردّوا يا نسوان... قولوا معي...»

وردَّدَت الأصوات بعدها؛ وظلَّت الكلمات تختنق في الحناجر، والدموع تتحجّر في مآقيها، وكأنّما كفّ ريّا تمتدّ إلى كلّ وجه، بصفعة قويّة، وأصابعها العشرة تتراقص في العيون متّهمة.

«يا عريس... عروستك سافرت بكّير.»

«سافرت لبعيد، وما ودَّعتك.»

«يا مَيمتي... يا حرقة قلبي.»

قلب أمّها يحترق وحده، وفوقه يتراكم الجسم المقهور كومة أغصان يابسة.

ارتمى مخّول فوق السرير، يمرّغ وجهه ويشهق، ويغمر الجسم بساعدَيه، محاولًا أن يبُثّ فيه حرارة الحياة... مثلما دخلَت حياته خرجَت منها، من دون أن تترك أثرًا، أو تسمح مرّة بالجواب عن سؤال.

ويجأر بصوت ذبيح: «خبروني شو صار؟».

وماذا تنفع الأخبار؟

حمله بو دعّاس وجمهرة من الشباب إلى غرفة الرجال، وتركوا النساء يُتابعنَ الحوار مع ريّا.

لم يتنبّه أحد للشاب السائر في ذيل الجنازة، منكّس الرأس، جامد الأطراف...

لقد عاد ناجي في ذلك النهار يستغفر عمّه، ويخبره عن بدء حياة جديدة في العاصمة، ويحمل إليه النقود التي اختلسها مع الفائدة... وكان هو في الحقيقة، لا طيفه، ما شاهدَته ريّا في لحظاتها الأخيرة.

كان ينوي أن يقوم بزيارة تهنئة بعد خروجه من القدّاس، ليُخبرها أنّه وجد حياة جديدة، ليتمنّى لها السعادة والهناء... ليُغلق وإيّاها أبواب الماضي، ويطلّ على أعتاب غد واعد... ولكنّها لم تُمهله:

«لم تنتظري لحظات يا ريّا، كان في استطاعتي أن أُساعدك، أنا قادم لمساعدتك... من أجلك شقَقت الطرق الوعرة، وخلعتُ الجلد البالي، لأرتدي لباسًا نظيفًا لائقًا. وكنتُ يا ريّا حاضرًا، رهن إشارة منكِ... الآن وقد أصبح في إمكاني مساعدتك... لم تنتظريني. ما هكذا تواعَدنا... وكان طموحي أن أُعيد إليك بعض فضلك، أن أحمل إليك زهرة من زهرات السعادة القليلة التي غرست في حياتي... ولكنّك رفضتِ. وها أنا أحمل الزهرة، لأشكّها على قبرك... فهل تصلك في يوم؟»

وقف الفتى بعيدًا، يُراقب الرجال يهيلون التراب في الحفرة العميقة... وأحسَّ تلك الذرّات الطازجة الحمراء تلتفّ حول قلبه وتملأ صدره؛ فجرجر قدمَيه وسار على غير هدى، وظلّ يسير في اتّجاه غروب الشمس حتّى وجد نفسه عند كتف الينبوع، صديق الأيّام الغابرة.

جلس على حافته يتأمّل صفحته الهادئة، ويصغي إلى وشوشات المياه، ويحاول أن يحلّ رموزها: «ماذا تهمس قطرات الماء في أُذن المساء؟ ماذا

تحمل إلى جذع شجرة الدفلى؟ إلى جذع العلّيق المتشابك على ضفّتَي الساقية؟ الينبوع باقٍ... والعصافير تأتي وتروح... وهو طير كسير، يعود عند المساء، يشكو إلى الينبوع همّه، فيسمع ويحوّل الشكوى إلى الأعماق، لتغور بين ذرّات التراب والرمال. تغور بصمت، لتتفتّح بعد أيّام، بعد أشهر، أو بعد قرون... إلى ماذا يمكنها أن تتحوّل همساتي الصغيرة؟ وأصواتنا، أما زالت عالقة في الجوّ؟ وهل سيأتي يوم ألقاها فيه، هنا، عند حافة الينبوع، تدندن بصوتها العذب، تغنّي للأرض، للعصافير، للشمس والشجر؟».

أُحسَّ ناجي بمثل عزاء، وكأنّ الينبوع والأشجار وحبّات التراب انقلبَت إلى أصدقاء، تعاهده على الوفاء بالوعود، على المحبّة، على المسير معه في طريق المستقبل... ونهض يهمُّ بالعودة إلى البيت، فاصطدمَت كتفه بغصن من أغصان الدفلى... مدَّ يده إلى الغصن يقطع حفنة من زهراته الورديّة؛ وتأمّلها طويلًا بين راحتَيه، قبل أن يذريها في الهواء ويلاحقها بنظراته، فيبصر واحدة منها تسقط في قلب الينبوع، وتطفو لحظات فوق صفحته قبل أن تحملها المياه إلى مجراها...

رسالة من ريّا

«قاسية كنتِ يا رفيقة الطفولة

تذكرين متى افترقنا... إنّك تُجيدين حفظ الأرقام، أمّا أنا؟...

منذ افترقنا ونحن نعيش في عالمين مختلفين؛ وكانت السنوات التي فصلَت بيننا جدارًا كثيفًا لم نستطع أن نخرقه لنقول: «مرحبًا».

ولو قلتُها من جهتي، فلن تصلك... وإذا تلفّظتِ أنتِ بها، تجيئني فاقدة طعم الماضي وذكريات الطفولة...

أنا، لم يُتَحْ لي الوقوف على أطلال الماضي وقفة تذكّر، وحين التقينا في تلك الأُمسية لم أكن أعي هذه الأمور.

قلتِ ساعة أبصرتني: «أنا مشتاقة إليكِ يا ريّا، مشتاقة كثيرًا.»

ورحَّبتُ بكِ، وببساطة دعوتُكِ إلى صدر الدار: «تفضّلي، وهؤلاء أطفالي»...

كنتُ أُحبّ أن تُعيدنا تلك الجلسة إلى وصل ما انقطع، وسألتِني: «هل أنتِ سعيدة يا ريّا؟» ثمّ شرحتِ لي الأسباب التي مَنَعَتك من زيارتي في الماضي. اعتذرتِ، وكأنّك تكفّرين عن خطيئة، وكأنّكِ تحاولين إرضاء ضميرك.

وجلسنا؛ تذكرين المناسبة... ذاكرتك جيّدة جدًّا، هذا ما كشفَته أوراقك...

صرفت أطفالي وأعدَدتُ لكِ فنجان قهوة مطيّبة بحبّ الهال. قلت لي: «هذه النكهة فقدتها في بيروت».

وفي الخارج كان المساء هادئًا؛ ما زالت أيّامنا هادئة كما تعهدينها.

لم تحوّلي عينيك عن وجهي وجسمي وشعري، ولمحتُ فيهما لونًا من شفقة حنون: «سمنت كثيرًا يا ريّا!»، قلتها ببساطة وخلفها اختبأ أكثر من سؤال. كنتِ

تودّين أن تسألي: لماذا أترك شعري مبعثرًا؟ لِمَ الشيب المبكر؟ كيف أنقطع عن كلّ ما يجري في العالم؟

وأنا أعلم أنّي أبني عالمي الصغير... مخّول، والأولاد هم المحور الذي تدور حوله حياتي.

وخفضتُ بصري أمام نظراتكِ المستفهمة، حاولتِ أن تعرّيني من كلّ أسراري. وأنا اعتقدتُ أنّ الماضي عاد يرفّ بيننا بأجنحته الذهبيّة، وامَّحَت سنوات الفراق، فرحتُ أفصّل لك حكايتنا من أوّلها.

لا، أنا لا أملك أسلوبك ولا طريقتك المتشعّبة في شرح الأمور. أخبرتك ما جرى ببساطة، وفي يقيني أنّي كنتُ أروي حكاية فتاة أخرى عرفتها في الماضي.

و«شجرة الدفلى»؟

يا لذاكرتك المدهشة؟

كيف اخترتها من دون كلّ الأشجار لتنقليها، معك، إلى المدينة؟

وتلومين بو دعّاس؟

قلتِ في أوراقك إنّه يتدخّل في شؤون الآخرين، ويتلاعب بمصائرهم. يحرّكهم كالدمى... وأنتِ، ماذا فعلتِ؟

ها إنّك تتقمّصين شخصيّته، فتتدخّلين في كلّ شأن، وتنقلين الأخبار إلى الخارج. هذا الخارج الذي لم يحصل لي شرف التعرّف إليه...

مدَدتِ يديكِ وكلّ أحاسيسك اللاقطة لتنقلي إليه وجهي... وكنتُ أعتقد أنّك قمتِ بزيارتي بدافع الشوق. قد يكون ذلك صحيحًا ولكنّك استغللتِ اللحظة الهانئة، شوّهتها، اعتديتِ على الماضي... راحَت يداكِ تنبشان الصناديق القديمة، ونحن في «الجورة» نحبّ أن تظلّ صناديقنا مقفلة، كصدر «بونا جريس».

أقول «نحن» و«أنت» لأنّك لم تعودي منّا؛ أنتِ في الخارج، ومن هناك تتحدّثين، وتبصرين... وتسمعين وتقيسين الأمور.

الجدار يحجب الحقيقة، فتصلك كما تشائينها أو كما يشاؤها خيالك.

أُحبّ أن أسألك: لماذا بعثتِ بأوراقك إليّ؟ دفعتها إلى أنفي: «اقرئيها يا ريّا، ثمّ أعيديها إليّ متى انتهيت».

تعلمين أنّي لا أقرأ كثيرًا؛ ومع ذلك قرأت قصّتك، لا قصّتي أنا... وها أنا أُعيدها إليك لتفعلي بها ما تشائين.

يبقى سؤال واحد: لماذا قَتَلتِ ريّا في النهاية؟ ألم يكن هناك خلاص آخر؟.»

أعادَت ريّا الأوراق إليّ مع ملاحظاتها... وشعرت بالحزن يعصر قلبي، وبحاجة قصوى إلى البكاء. كنتُ أقوم بالمحاولة الأخيرة لأصدمها، لأردّ إليها الصدمة التي تلقّيتها في أثناء زيارتها.

ولكنّ حيلتي لم تنفع.

فاتَ الأوان!

الفرصة ضاعَت من يدي، فقد وصل الخدر إلى تجاويف القلب.